

تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء السادس

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء السادس

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ
مُسْمِعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه كثيراً من عيوب المنافقين ومفاسدهم لإقامة الحجة عليهم ،
وحذر المؤمنين من مثل أعمالهم وأخلاقهم كما قال : « وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .
بين هنا حكم الجهر بالسوء من القول وإبداء الخير وإخفائه حتى لا يستدل المؤمنون
بذكر عيوب المنافقين والكافرين في القرآن على استحباب الجهر بالسوء من القول
أو مشروعيته إذا كان حقا على الإطلاق فيفسو ذلك ، وفي هذا من الضرر ما سندر .

الإيضاح

(لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) حب الله لشيء هو الرضا به والإثابة عليه ،
والجهر يقابل السر والاختفاء ، والسوء من القول ما يسوء من يقال فيه كذكر عيوبه
ومساويه التي تؤذي كرامته .

والمعنى — إن الله لا يحب من عباده أن يجهروا فيما بينهم بذكر العيوب والسيئات
لما في ذلك من المفساد الكثيرة التي أهمها :

(١) أنه مجلبة للعداوة والبغضاء بين من يجهر بالسوء ومن ينسب إليه هذا السوء ،
وقد يضل الأمر إلى هضم الحقوق وسفك الدماء .
(٢) أنه يؤثر في نفوس السامعين تأثيراً ضاراً بهم ، فقد جرت العادة بأن
الناس يقتدى بعضهم ببعض ، فمن رأى إنساناً يسب آخر لضغائن بينه وبينه ،
أو لكرامته إياه قلده في ذلك ولا سيما إذا كان من الأحداث الذين يغلب عليهم
التقليد أو من طبقة دون طبقته ، إذ عامة الناس يقلدون خواصهم ، فإذا ظهرت
المنكرات في الخاصة لاتلبث أن تصل إلى العامة وتفشو بينهم . ومن تميل نفسه إلى
منكر أو فاحشة يجترئ على ارتكابها إذا علم أن له سلفاً وقدوة فيها ، فسماع السوء
كعمل السوء فذاك يؤثر في نفس السامع وهذا يؤثر في نفس الرائي والناظر ،
وأقل هذه الأضرار أنه يضعف في النفس استقباحه واستبشاعه خصوصاً إذا تكرر
السماع أو النظر .

وكثير من الناس يجهل مبلغ تأثير الكلام في القلوب فلا ينزهون ألسنتهم
عن السوء من القول ولا أسماعهم عن الإصغاء إليه .

والخلاصة — إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول ولا الإصرار به إذ هو
قد نهى عن النجوى بالإيم والعدوان ومعصية الرسول ولكنه خص الجهر هنا بالذكر
لمناسبة بيان مفسد الكفار والمنافقين في هذا السياق .

والجهر بالسوء أشدُّ ضراراً من الإسرار به لأن ضرره وفساده يفشو في جمهرة الناس ويعم سائر الطبقات .

(إلا من ظلم) أى لكن من ظلمه ظالم فجهر بالشكوى من ظلمه شارحاً ظلامته لحاكم أو غيره ممن ترجى نجاته ومساعدته على إزالة هذا الظلم فلا حرج عليه في ذلك ، فإن الله لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم ولا أن يخضعوا للظلم ، بل يحب لهم العزة والإباء .

فهاهنا تعارضت مفسدتان مفسدة الجهر بالشكوى من الظلم بقول السوء ومفسدة السكوت على الظلم وهو مدعاة فشوه والتماذى فيه ، وذلك مما يؤدي إلى هلاك الأمم وخراب العمران ، وكانت ثانيتهما أخف الضررين فأجيزت للضرورة التي تقدر بقدرها ، وإذا فلا يجوز للمظلوم أن يتماذى في الجهر بالسوء بما لا دخل له في دفع الظلم وفي الحديث « إن لصاحب الحق مقالا » رواه الإمام أحمد .

(وكان الله سميعاً عليماً) فلا يفوته قول من أقوال من يجهر بالسوء ولا يعزب عن علمه البواعث التي أدت إليه ، إذ لا يخفى عليه شيء من أقوال العباد ولا من أفعالهم ونياتهم فيها ، فمن جهر بالسوء الذي لا يحبه الله لعباده ضرره ومفسدته لظلم وقع عليه فالله لا يؤاخذ به ، بل ربما أثابه على ذلك لإراحة الناس من شر فاعله فإن الظالم إن لم يؤاخذ على ظلمه يزدد فيه ضراوة وإصراراً .

(إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً) أى إن فاعلى الخير سرا وجهراً والعافين عن يسىء إليهم يجزيهم ربهم من جنس ما عملوا فيعفو عن سيئاتهم ويحزل مثوبتهم ، والله من شأنه العفو وهو القدير الذى لا يعجزه الثواب الكثير على العمل القليل .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

المعنى الجملى

بين الله تعالى أن للإيمان ركنين يبنى عليهما ماعداهما ، ولا يقبل الإيمان بدونهما
وهما الإيمان بالله وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر .

الإيضاح

(إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون
نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك
هم الكافرون حقا) ليس المراد أنهم يصرحون بالكفر بل هو ما تقتضيه آراؤهم
ومذاهبهم ، وقوله : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بيان لتفريقهم بين الله ورسله .

والخلاصة — إن الكافرين بالرسل فريقان فريق لا يؤمن بأحد منهم
لإنكارهم النبوات وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند
أنفسهم لا من عند الله ، وأكثر الملحدين في هذا العصر من ذلك الفريق . وفريق
آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بيسى ومحمد
فهما ليسا برسولين ، وقول النصارى نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد والفريقان
كافرون مستحقون للعذاب ولا عبرة بما يدعونه إيمانا .

(وأعدنا للكافرين عذابا مهينا) أى وأعدنا لكل كافر سواء أكان منهم

أم من غيرهم عذابا فيه ذل وإهانة لهم جزاء كفرهم الذي ظنوا فيه العزة والكرامة .
 ذاك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحيه إلى رسله لا يكون إيمانه صحيحا
 ولا يهتدى إلى ما يجب له من الشكر ولا يعرف كيف يعبد على الوجه الذي يرضيه ،
 ومن ثم نرى أمثال هؤلاء ماديين لآتهمهم إلا شهواتهم كما أن من يؤمنون ببعض الرسل
 ويكفرون ببعض كأهل الكتاب لا يعتد بقولهم لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق
 إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم .

ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها في محمد صلى
 الله عليه وسلم فهو قد جاء بكتاب حوى ما لم يحويه كتاب آخر مع أنه نشأ بين قوم
 أميين ، ونقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعي والأسانيد المتصلة دون غيره
 من الكتب .

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفي المذكور ذكر حال فريق ثالث فقال :
 (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم)
 أي والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريعة آخرهم علما منهم بأن جميعهم مرسل
 من عند الله ، وما مثلهم إلا مثل ولاية يرسلهم السلطان إلى البلاد ومثل الكتب
 التي جاءوا بها مثل القوانين التي يصدر السلطان مراسيم للعمل بها فكل وال منهم
 إنما ينفذ أوامر السلطان وكل قانون يعمل به لأنه منه وكل قانون جديد ينسخ ما قبله
 ويمنع العمل به . وأولئك يؤتيهم الله أجورهم على حسب حالهم في العمل ، لأنهم
 وقد صح إيمانهم بالله ورسله يهديهم ربهم إلى العمل الصالح إذ هو الأثر اللازم لذلك
 الإيمان الصحيح .

ولم يقل في هؤلاء إنهم هم المؤمنون حقا كما قال في أولئك إنهم هم الكافرون
 حقا لثلا يدور بخلد أحد أن كمال الإيمان يوجد بدون العمل الصالح فيغتر بذلك ويترك
 العمل النافع وهذا مما لا يتلاءم مع نصوص الدين ، فلقد وصف الله المؤمنين حقا بقوله :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ »

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله غفورا لاهفوات من صح إيمانه ولم يشرك بربه أحدا ، ولم يفرق بين أحد من رسله ، رحيمًا به يعامله بالإحسان ويضاعف حسناته ويزيد على ما وعد تفضلا منه ورحمة .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا (١٥٩)

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى فى سابق الآيات حال الذين يكفرون بالله ورسله ويفرقون
بين الله ورسله فيقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض وهم أهل الكتاب ، بين فى هذه
الآيات بعض حوادث لليهود تدل على شديد تعنتهم وجهلهم بحقيقة الدين .

الإيضاح

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) فقد قالوا له إن موسى
عليه السلام جاء بالألواح من عند الله فأتينا بكتاب من عنده تكون بخط سماوى يشهد
أنك رسول الله إلينا .

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : إن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم
لن نبإعك على ماتدعوننا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله يكون فيه (من الله
تعالى إلى فلان إنك رسول الله وإلى فلان إنك رسول الله ، وهكذا ذكروا أسماء
معينة من أحبارهم وما مقصدهم من ذلك إلا التعنت والتحكيم لا طلب الحجة
لأجل الاقتناع) وقال الحسن لو سألوه ذلك استرشادا لأعطاهم ما سألوا .

(فقد سألو موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) جهرة أى عيانا ننظر
إليه ونشاهده أى لا تعجب أيها الرسول من سؤالهم وتستنكره فقد سألو موسى أكبر
من ذلك وكل من السؤالين يدل على جهل أو عناد .

ذاك أن سؤال الرؤية جهرة دليل على الجهل بالله إذ هم ظنوا أن الله جسم محدود
بدركه الأبصار ؛ وأما سؤال إنزال الكتاب فهو دليل إما على العناد لأنهم اقترحوا

ما اقترحوا تعجيزا ومراوغة وإما على الجهل بمعنى النبوة والرسالة مع ما ظهر فيهم من أنبياء ، إذ هم لا يميزون بين الآيات الصحيحة التي يؤيد الله بها رسله وبين الشعوذة وحيل السحرة المخالفة للعادة ، وكتبهم قد بينت لهم أنه يقوم فيهم أنبياء كذبة وأن النبي يعرف بدعوته إلى التوحيد والحق لا بمجرد أعجوبة يعملها كما نصت على ذلك التوراة في سفر تثنية الاشتراع وغيره .

وأيما ما كان فلا فائدة في إجابتهم إلى ما طلبوا كما قال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

ونسب سؤال موسى إليهم والذين سألوهم إنما هم سلفهم لأن الخلف والسلف سواسية في الأخلاق والصفات ، فالأبناء يرثون الآباء ولا سيما اليهود الذين يأبون مصاهرة الغرباء ، ولأن سنة القرآن قد جرت على أن الأمة تعد كالشخص الواحد في اتباع خلفها لسلفها فينسب إلى المتأخر ما فعله المتقدم كما سبق هذا في سورة البقرة في مخاطبة اليهود وغيرهم .

(فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) الصواعق نيران جوية تنشأ من اتحاد الكهرباء الموجبة بالكهرباء السالبة ، وقوله بظلمهم أى بسبب ظلمهم أى إن الله تعالى عاقبهم على جهلهم بإتزال الصاعقة عليهم عذابا لهم ، إذ شبهوا الخالق بالخلق ورفعوا أنفسهم فوق أقدارها كما قال تعالى « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » .

(ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فغفونا عن ذلك) تقدم هذا في سورة البقرة أى وبعد أن جاءتهم المعجزات على يد موسى عليه السلام من قلب العصا حية واليد بيضاء وخلق البحر وغيرها ، اتخذوا العجل إلها وعبدوه ، فغفونا عن ذلك الذنب حين تابوا ، فتوبوا أتم مثلهم حتى نغفو عنكم مثلهم .

(وآتيناهم موسى سلطانا مبينا) السلطان هنا بمعنى السلطة أى إننا أعطيناه سلطة ظاهرة فأخضعناهم له على تمردهم وعنادهم حتى في قتل أنفسهم ، وفي هذا بشارة للنبي

صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندون فإنك ستتغلب عليهم
آخرًا وتقهروهم .

ثم حكى الله عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم وقد تقدم بعضها
فى سورة البقرة فقال :

(ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) الطور الجبل المعروف رفع فوقهم كأنه ظلة
وقد كانوا فى واديه ، وقوله بميثاقهم أى بسبب ميثاقهم أن يأخذوا ما أنزل إليهم بقوة
ويعملوا به مخلصين ثم امتنعوا من العمل بما جاء به فرفع عليهم الجبل خافوا وقبلوا
العمل به .

(وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا) الباب هو باب المدينة وهى بيت المقدس وقيل
أريحا ، وقوله سجدا أى خاضعى الرءوس مائلى الأعناق ذلة وانكسارا لعظمته أى وقلنا
لهم على لسان يوشع عليه السلام ادخلوا باب هذه القرية بذلة وانكسار .

(وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت) والاعتداء تجاوز الحد ، والاعتداء فى السبت
هو اصطيد الحيتان فيه أى وقلنا لهم على لسان داود عليه السلام لا تتجاوزوا حدود الله
فيه بالعمل الدينى ، وقد خالفوا فى السبت وفى دخول الباب .

(وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) الميثاق الغليظ العهد المؤكد أى وأخذنا منهم
عهدا مؤكدا ليأخذن التوراة بقوة وليقيمن حدود الله ولا يعتدونها ، ويتبع ذلك
البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام وهو موجود إلى الآن فى الفصل التاسع والعشرين
وما بعده من سفر تثنية الاشتراع وهو آخر التوراة التى بأيديهم .

(فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى فبسبب
نقض أهل الكتاب للميثاق الذى واثقهم الله به فأحلوا ما حرمه وحرّموا ما أحله
وكفرهم بآيات الله وحججه الدالة على صدق أنبيائه وقتل الأنبياء الذين أرسلوا
لهدائهم كزكريا ويحيى عليهما السلام .

(وقولهم قلوبنا غلف) جمع أغلف وهو ما عليه غلاف . أى لا ينفذ إليها شيء مما جاء به الرسول ولا يؤثر فيها وهذا كقوله حكاية عن المشركين « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » وغير ذلك من سيئاتهم التي ستذكر بعد - فعلنا بهم ما فعلنا من لعن إلى غضب إلى ضرب الذلة والمسكنة وإزالة الملك والاستقلال ، لأن هذه الذنوب فرقت شملهم وذهبت بقوتهم وأفسدت أخلاقهم إلى غير ذلك من أنواع البلاء التي سببها الكفر والعصيان .

(بل طبع الله عليها بكفرهم) طبع الله عليها جعلها كالسكة المطبوعة في تساوتها وجعلها بوضع خاص لا تقبل غيره أى ليس ما وصفوا به قلوبهم هو الحق الواقع ، بل لأن الله ختم عليها بسبب كفرهم الكسبي وماله من الأثر القبيح في أعمالهم وأخلاقهم ، فهم باستمرارهم على ذلك الكفر لا ينظرون في شيء آخر نظر استدلال واعتبار ، مع أنه من الأمور التي يصل إليها اختيارهم ، ولكنهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا .

(فلا يؤمنون إلا قليلا) أى إلا قليلا من الإيمان لا يعتد به لأنه تفرق بين الله ورسله ، فالكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم وهم قد كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام . (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) المراد بالكفر هنا الكفر بعيسى عليه السلام بدليل ما بعده ، وبالكفر الذي قبله الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله : وقالوا قلوبنا غلف ، والبهتان الكذب الذي يهت من يقال فيه أى يدهشه ويحيره لبعده وغرابته ، والمراد به هنا رميها بالفاحشة .

والمعنى — أى وطبع الله عليها بكفرهم بعيسى وأمه ومريم إياها بالكذب العظيم وأى بهتان تبهت به العذراء التقية أعظم من هذا ؟

والخلاصة — إن هذا الكفر والبهتان من أسباب ما حل بهم من غضب الله . (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أى وبسبب قولهم هذا

القول المؤذن بالجرأة على الباطل والاستهزاء بآيات الله .

وذكره بوصف الرسالة تهكما واستهزاء بدعوته بناء على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم لا الألوهية ، كما ادعت النصرى إذ جاء في رواية إنجيل يوحنا (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) . (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أى والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ولكن وقع لهم الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى وهم إنما صلبوا غيره ومثل هذا الشبه يحدث كثيرا فى كل زمان وتحكى عنه نوادر وحوادث غاية فى الغرابة لكنها قد وقعت فعلا .

فقد ذكر بعض المؤلفين فى الطب الشرعى من الإنكليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩ فى فرنسا استحضر فيها ١٥٠ شخصا لمعرفة شخص يدعى (مارتين جير) جزم أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون إنه غيره والباقون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدوا رأيا ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء اليهود المبتتون وعاش مع زوجته مارتين محوطا بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات وكلهم مصدق أنه مارتين ، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم فى محكمة أخرى فأحضر ثلاثون شاهدا أقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين ، وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقيون على أن هذه الحادثة من خوارق العادات التى أيد الله بها نبيه عيسى بن مريم وأنقذه من أعدائه فألقى شبهه على غيره وغير شكله فخرج من بينهم وهم لا يشعرون ، وفى أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا الوجه ؛ وإذا قال قائل : وإذا كان المسيح قد نجا من أعدائه فأين ذهب ؟ والجواب أنا إذا قلنا إنه رفع بروحه وجسده إلى السماء فلا ترد هذه الشبهة ، وإذا قلنا إن الله توفاه فى الدنيا ثم رفعه إليه كما رفع إدريس عليهما السلام فلا غرابة فى ذلك ، فإن أخاه موسى عليه السلام قد انفرد عن قومه فى مكان لم يعرفه أحد منهم ، وكانوا أوفاء عدة خاضعين لأمره ونبيه فكيف يستغرب أن يفر عيسى عليه السلام من قوم هم أعداء

له لا ولى له فيهم ولا نصير إلا أفراد من الضعفاء قد انفضوا من حوله وقت الشدة ،
وقد أنكره أمثلهم بطرس الحوارى ثلاث مرات .

(وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) قال
في لسان العرب : الشك ضد اليقين ، فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أهو
المصلوب كان أم غيره ؟

والمعنى — وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب في شك من
حقيقة أمره وفي تردد إذ ليس لهم به من علم قطعى الثبوت وإنما هم يتبعون الظن
والقرائن التى ترجح بعض الآراء على بعض ، وقد جاء في بعض الأناجيل التى يعولون
عليها أنه قال لتلاميذه (كلكم تشكون في هذه الليلة) أى الليلة التى يطلب فيها
للقتل (إنجيل متى من ٢٦ — ٣١ ومرقس من ١٤ — ٢٧) .

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه وعرف الناس بأنهم سيشكون
فيه في ذلك الوقت ، وخبره صادق قطعا ، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من
دونهم في أمره .

(وما قتلوه يقينا) أى وما قتلوا عيسى بن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه .
إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة والأناجيل التى يعول عليها صريحة في أن
الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الاسخريوطى وقد جعل لهم علامة أن من قبله يكون
هو المسيح فلما قبله قبضوا عليه ، وإنجيل برنابا يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا
الاسخريوطى نفسه ظنا أنه هو المسيح لأنه ألقى عليه شبهه ، ومن هذا تعلم أن الجند
ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

والخلاصة — إن روايات المسلمين جميعها متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا
من أعدائه ومريدى قتله قتلوا آخر ظنا منهم أنه هو .

(بل رفعه الله إليه) هذه الآية كآية آل عمران « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ ارْفَعْكَ وَإِلَى مَوْطِنِكَ إِلَى مَوْطِنِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » وقد روي عن ابن عباس أنه

فسر التوفى بالأمانة ، وعن ابن جريج تفسيره بالأخذ والقبض والمراد منه ومن الرفع إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله بعد أن اصطفاه إليه وقربه .

وقال ابن جرير نقلا عن ابن جريج رفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا أى فليس المراد الرفع إلى السماء بالروح والجسد ولا بالروح فقط ، وعن تفسير ابن عباس فعنى الرفع رفع الروح ولكن المشهور بين جمهرة المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء بدليل حديث المعراج إذ أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية ، وأنت ترى أنه لا دليل لهم فى ذلك إذ لو دل هذا على ما يقولون لدل على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء فى سائر السموات ولا قائل بذلك .

وقال الرازى — المعنى رافعك إلى محل كرامتى ، وجعله رفعا للتفخيم والتعظيم كقوله حكاية عن إبراهيم « إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى » وهو إنما ذهب من العراق إلى الشام ، والمراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه إلا الله اهـ .

(وكان الله عزيزا حكيما) أى إن الله عزيز يغلب ولا يغلب ، وبهذه العزة أنقذ عبده ورسوله من اليهود الماكرين وحكام الروم الظالمين وبمحكمته جازى كل عامل بعمله ، ومن ثم أحل باليهود ما أحل بهم من الذلة والمسكنة والتشريد فى الأرض وسيوفهم جزاءهم يوم القيامة « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته) أى إن كل أحد من أهل الكتاب عند ما يدركه الموت يتكشف له الحق فى أمر عيسى وسواه من أمور الدين . فيؤمن بعيسى إيمانا حقا لازيغ فيه ولا ضلال ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق فى رسالته . ليس بالكذاب ، والنصرانى يعلم أنه عبد الله ورسوله وليس بإله وليس هو ابن الله وفائدة إخبارهم بذلك — أنه لا ينفعهم حينئذ فعلهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة .

(ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم كما حكى الله عنه من قوله : « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتُنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ » فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار وعلى الكافر بالكفر إذ هو مرسل إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة ، فيشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته ، روى البخارى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته » وروى ابن مردويه عن ابن عباس « ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار » .

وهذا يؤيد ما روى عن ابن عباس في تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتقيح .

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُوْنِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضائح اليهود وقبيح أعمالهم ، ذكر هنا تشديده عليهم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فبتحريم طيبات كانت محللة لهم ، وأما في الآخرة فبما بينه الله بقوله (وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما) .

الايضاح

(فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) أى فبسبب ظلمهم استحقوا تحريم طيبات كانت محللة لهم ولأن قبلهم عقوبة وترية لهم ، لعلمهم يرجعون عن ظلمهم ، وكانوا كما ارتكبوا معصية يحرم عليهم نوع من الطيبات وهم مع ذلك كانوا يفترون على الله الكذب ، ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه ، بل كانت محرمة على نوح وإبراهيم فكذبهم الله في مواضع كثيرة كقوله : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ » .

أما الطيبات التي حرمها عليهم فهي ما بين في قوله عز اسمه « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ » الآية . وقد أبهمها الله هنا لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة لا بيانها في نفسها ، كما أبهم الظلم الذي كان سببا في العقوبة ليعلم أن أى نوع منه يكون سببا للعقاب في الدنيا قبل الآخرة .

والعقاب إما دنيوى كالتكاليف الشاقة زمن التشريع ، والجزاء الوارد في الكتب على الجرائم كالحد والتعزير وما اقتضته السنن التي سنّها الله في نظم الاجتماع من كون الظلم سببا لضعف الأمم وفساد عمرانها واستيلاء الأمم الأخرى عليها ، وإما أخروى وهو ما بينه في الكتاب الكريم من العذاب في النار .

(وبصدم عن سبيل الله كثيرا) الصدم والصمود المنع وهو يشمل صدم أنفسهم عن سبيل الله بما كانوا يعصون به موسى ويعاندونه مرارا ، وصدم الناس عن سبيل الله بسوء القدوة أو بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وهو من البيان والتفصيل للظلم بعد إجماله وإبهامه ، وهو أوقع في النفس وأبلغ في الموعظة .

(وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) أى وبسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على السنة أنبيائهم ، والتوراة التى بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوانهم دون الأجانب فقد جاء فى سفر الخروج (إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالرأبى ، لاتضعوا عليه ربا) وفى سفر تثنية الاشتراع (لاتقرض أخاك ربا ، ربا فضة أو ربا شئ مما يقرض ربا ، للأجنبى تقرض ربا ، ولكن لأخيك لاتقرض ربا) وهذه عبارة التوراة التى كتبت بعد السبي ، وثبت تحريرها بالشواهد الكثيرة ، أما النسخة التى كتبها موسى فقد قدت باتفاق اليهود والنصارى .

و بعض أنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقا فلم يقيدوه بشعب إسرائيل كقول داود فى المزمور الخامس عشر : فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البرىء ، وقول سليمان فى سفر الأمثال (المسكر ماله بالربا والمراحمجة فلن يرحم الفقراء يجمعه) .
(وأكلهم أموال الناس بالباطل) بالرشوة والخيانة ونحوها مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به ، ونحو الآية قوله تعالى : « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » والسحت : الكسب الحرام فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله .

وبعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها بين جزاءهم عليها فى الآخرة فقال :

(وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أى هيأنا وأعدنا للذين كفروا منهم برسل الله عذابا مؤلما فى نار جهنم خالدين فيها أبدا .

وبعد أن بين فى هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم وأطلق القول فى ذلك ، وكان هذا مما يؤهم أنه شامل لكل أفرادهم جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم فقال :

(لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل

من قبلك) أى لـكن أهل العلم الصحيح بالدين منهم المستبصرون فيه غير التابعين للظن الذين لا يشتركون به ثمنا قليلا من المال والجاه ، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل ، يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل ، ولا يفرقون بين الله ورسله بهوى ولا عصبية .
 روى ابن إسحق والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عبد الله ابن سلام وأسيد بن سَعْيَةَ وثعلبة بن سَعْيَةَ حين فارقوا يهود وأسلموا .

(والمقيمين الصلاة) أى وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال ، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان ، إذ إقامتها بتعديل أركانها علامة كمال الإيمان واطمئنان النفس به .

(والمؤتُونَ الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) أى والمؤتُونَ الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة فى استحقاق المدح بالتبع ، إذ إقامتها تستدعى إيتاء الزكاة فإن الذى يقيمها على الوجه الذى طلبه الدين لا يمنع الزكاة ، إذ هى مما تركى النفس وتعالى الهمة وتهون على النفس المال قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصْطَفَى » الآية .
 (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) أى هؤلاء الذين وصفوا بما ذكر كله سنعطيهـم أجرا عظيما لا يدرك وصفه إلا علام الغيوب .

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)

المعنى الجملى

لا يزال الحديث مع أهل الكتاب فإنه ذكر عنهم أولاً أنهم يفرقون بين الله ورسله فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ثم انتقل إلى ذكر شيء من عندهم وإعتناهم للنبي صلى الله عليه وسلم وطلبهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء وبين أنه لا غرابة في ذلك فقد شاغبوا موسى من قبله وسألوه ما هو أكبر من ذلك، ثم ذكر كفرهم بعيسى عليه السلام وبهتتهم أمه ومحاولتهم قتله وصاحبه، وفي كل هذا دليل على تأصل العناد فيهم، ولولا ذلك لما شاغبوك، فإن الدليل على نبوتك أوضح مما يدعون الإيمان بمثله ممن قبلك — وهنا ختم الكلام في محاجتهم ببيان أن الوحي جنس واحد، ولو كان إيمانهم بالرسل السابقة صحيحاً لما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

الإيضاح

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الوحي لغة الإيماء والإشارة كما قال تعالى: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكُورَةً وَعَشِيًّا» والإلهام الذى يقع فى النفس كما قال: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ» وما يكون غريزة دائماً كما قال: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ» والإعلام فى خفاء بأن تعلم إنساناً بأمر تخفيه على غيره كما قال: «شَیَاطِینَ الْإِنسِ الْجِنَّ یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

ووحى الله إلى أنبيائه هو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق

بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطرب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور .

والمعنى إنا قد أوحينا إليك هذا القرآن كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ممن يؤمن بهم هؤلاء الناس ، والله لم ينزل على أحد منهم كتابا من السماء كما سألوك للتعبيز والعناد ، لأن الوحي ضرب من الإعلام السريع الخفى ، وليس هو بالأمر المشاهد الحسى ، وقد بدأ الله بذلك نوح لأنه أقدم الأنبياء ، وقصص بعثته في سفر التكوين وهو أحد الأسفار الخمسة التى تتضمنها التوراة .

(وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان) . الأسباط واحد سبط وهو ولد الولد ، وأسباط بنى إسرائيل اثنا عشر سبطا وهم أبناء يعقوب العشرة وولدا ابنه يوسف ، والأسباط فى بنى إسرائيل كلقبائيل فى ولد إسماعيل .

(وآتينا داود زبوراً) الزبور الكتاب وكل كتاب زبور ، وهو هنا اسم للكتاب المنزل على داود وقد أفرد بالذكر لأن له شأنا خاصا عند أهل الكتاب .

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل) أى وأرسلنا غير هؤلاء رسلا آخرين قد قصصناهم عليك من قبل تنزيل هذه السورة ، وهم الذين ذكرت أسماؤهم فى السورة المسكية كقوله فى سورة الأنعام فى سياق الكلام عن إبراهيم « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ » .

وأجمع السور لقصص الأنبياء هود والشعراء .

(ورسلا لم نقصهم عليك) كالذين أرسلوا إلى الأمم المجهول تاريخها عند قومك وعند أهل انكتاب المجاورين لبلادك كالصين واليابان والهند وأوربا وأمريكا. وإنما لم يقص الله علينا خبرهم لأن القصد من القصص العبرة والتثنية والذكرى والاحتجاج على نبوته صلى الله عليه وسلم كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ» وقوله: «وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» وكل هذا يثبت بذكر من قصصهم الله علينا من الرسل، وعلينا أن نعلم أن الله أرسل رسلا في كل الأمم فكانت رحمته بهم عامة لا مختصة بشعب معين كما يزعم أهل الكتاب، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» وقوله: «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» وهذه حقيقة دل عليها الدين السامى ولم يكن يعلمها أهل الكتاب الذين يزعمون أن القرآن مقتبس من كتبهم، وكفى فيه من حقائق جلالها للناظرين بحمىل بيانه واهتدى العلم الصحيح بعد قرون خلت إلى معرفتها، وما كان العقل وحده يكشف عنها لولا أن هدى إليها الكتاب الكريم.

(وكلهم الله موسى تكليما) خاصا له ميزه عن غيره من ضروب الوحي العام لأولئك النبيين وليس لنا أن نخوض في معرفة حقيقته لأننا لم نكن من أهله، فنحن لانعرف حقيقة كلام بعضنا بعضا، وكيف تحمل ذرات الهواء الأصوات إلى الأذان فضلا عن أن تعرف حقيقة كلام البارى.

والوحي إلى الأنبياء يسمى تكليما والتكليم لهم يسمى وحيا كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ».

والحكمة فى الحجاب الاستعداد بالتوجه إلى شىء واحد تتحد فيه هموم النفس وأهواؤها المتفرقة كما كان شأن موسى إذ رأى النار فى الشجرة.

والرسول الذى يرسله الله فيوحى بإذنه ما يشاء هو ملك الوحي المبرر عنه بالروح الأمين .

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)
 أى أرسلنا رسلا قد قصصنا بعضهم عليك ولم نقصص بعضا آخر ليكونوا مبشرين
 من آمن وعمل صالحا بالثواب العظيم ، وينذروا من كفر وأجرم بالعذاب الأليم ،
 إذ لو لم يرسلهم لكان للناس أن يحتجوا إذا هم أجزموا أو كفروا بأنهم ما فعلوا
 ذلك إلا لجهلهم ما يجب من الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى (وَلَوْ أَنَّا
 أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا أَوَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
 آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى) وقال (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

والخلاصة - إن من حكمة إرسال الرسل قطع حجة الناس واعتذارهم بالجهل عند
 ما يحاسبهم الله ويقضى بعقابهم ، فلولا إرسالهم لكان لهم أن يحتجوا فى الآخرة على
 عذابهم فيها وعلى عذاب الدنيا الذى كان قد أصابهم بظلمهم .

والدين وضع إلهى لا يستقل العقل بالوصول إليه ولا يعرف إلا بالوحى وهو
 موافق لسنن الفطرة فى تركية النفوس وإعدادها للحياة الأبدية فى عالم القدس
 ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حده الله فى الدنيا والآخرة ولن يكون هذا
 الجزاء إلا لمن باغته الدعوة على الوجه الصحيح

(وكان الله عزيزا حكيمًا) أى وكان الله عزيزا لا يغالب فى أمر يريده ، ومن
 عزته ألا يجاب المتعنت إلى مطلوبه ، حكيمًا فى جميع أفعاله ، وحكمته تقضى هذا
 الامتناع ، لأنه يعلم أنه لو فعل ذلك لأصروا على لجأهم كما فعلوا مع موسى بعد أن
 جاءهم بما طلبوا .

(لكن الله يشهد بما أنزل إليك) هذا استدراك على ما علم من السياق من
 إنكارهم نبوته صلى الله عليه وسلم وعدم شهادتهم بها وهى واضحة عندهم فى مرتبة
 المشهود به ، لكنهم استبدلوا المباهة والمكابرة بالشهادة والإيمان ، فسألوه أن

ينزل عليهم كتابا من السماء يثبت دعواه ، ويكون شاهدا له ، فكأنه تعالى يقول
لرسوله صلى الله عليه وسلم : إنهم مع وضوح نبوتك لا يشهدون بما أنزل إليك ،
لكن الله يشهد به .

(أنزله بعلمه) أى فإنه أنزله بعلمه الخاص الذى لم تكن تعلمه أنت ولا قومك
بتأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان ، وبما فيه من العلوم
الإلهية والأدبية والسياسية والاجتماعية ومن علوم الأنبياء والرسل والأمم ، وبما له من
السلطان على الأرواح بهدأيته ، وبما فيه من أنباء الغيب عن الماضى والحاضر
والمستقبل وهو بهذه المزايا مثبت لشهادة الله به وأنه وحى من عنده .

والخلاصة - كأن الله تعالى يقول لنبيه إن جحود هؤلاء اليهود وعدم شهادتهم
لك لا يضر بك بشيء فالله يشهد بما أنزل إليك وأنت على يقين من ذلك الوحي ،
وقد أيد الله شهادته لك بما أودعه فى هذا القرآن فكان بذلك مثبتا لكونه
أنزل عليك من ربك ، كما أيدته بتصديق ما أنزله فيه من الوعد بالفلاح والنصر
والوعيد لمن عاداك بالخذلان والخسران .

(والملائكة يشهدون) أى والملائكة يشهدون بذلك أيضا ، لأن الذى نزل
به إليك هو الروح الأمين وهو منهم كما يؤيدك بجند منهم يثبتونك ويثبتون المؤمنين
فى القتال كما فى غزوة بدر قال تعالى « إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتُمْ مَعَكُمْ
فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَائِلِينَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » .

(وكفى بالله شهيدا) على ما شهد به لك حيث نصب الدليل وأوضح السبيل
فشهادته أصدق وقوله الحق « قُلْ أَيْ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَ كُفْرَهُ وَمَنْ بَنَعَ » .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا
بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ

وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)

المعنى الجملى

بعد أن أوضح سبحانه فى الآيات السالفة الحجة ، وأزال ما كان لليهود من شبهة ، وأثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة الله بما أنزل عليه مما لم يستطع البشر أن يأتوا بمثله - أُنذر فى هذه الآيات من يصّر منهم على الكفر ويستمر على الإعراض والظلم ، وبين لهم سوء العاقبة .

الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) أى إن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وصدوا غيرهم عن سبيل الله بإلقاء الشبهات فى قلوبهم كقولهم لو كان رسولا لآتى بكتابه دفعة واحدة من السماء كما نزلت التوراة على موسى ، وقولهم إن الله تعالى ذكر فى التوراة أن شريعة موسى لا تبدل ولا تنسخ إلى يوم القيامة ، وقد ضلوا ضلالا بعيدا لأن أشد الناس ضلالا من كان ضالا ويعتقد فى نفسه أنه محق ، ويتوسل بذلك الضلال إلى اكتساب المال فهو قد سار فى سبيل الشيطان وبعد عن سبيل الله فلم يعد يفقه أنها هى الموصلة إلى خير العاقبة .

(إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم) أى إن الذين كفروا بما أنزل إليك وظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الطريق الموصول إلى الخير والسعادة وظلموا غيرهم بإغوائهم إياهم بزخرف قولهم وسوء سيرتهم وصدّهم عن الصراط

المستقيم - ليس من سنته تعالى أن يغفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب والجزاء لأن الكفر والظلم قد أفسدا فطرتهم وأثرا في نفوسهم وأعما قلوبهم وجملاتها تستمرى قبيح الأفعال وتهوى شر الخلال والأعمال - ولا يزول هذا إلا إذا اتجهت نفوسهم إلى ما يضاد ذلك من إيمان صحيح وعمل صالح يزكى النفوس مما ران عليها ويظهرها وينشئها نشأة أخرى ، ولا سبيل إلى ذلك يوم الجزاء والحساب ومن ثم قال تعالى :

(ولا يهديهم طريقا إلا طريق جهنم) أى وليس من شأنه أن يهذى أمثالهم طريقا يوصلهم إلى الجزاء على أعمالهم إلا طريق جهنم ، فهى الطريق التى ينتهى إليها من دسى نفسه بالكفر والظلم وأوغل فى السير فيها طول عمره واستمرأ الشرور والفساد حتى هوت به إلى واد سحيق .

فانتظار المغفرة ودخول الجنات لأمثال هؤلاء انتظار لإبطال نظام العالم وتقض لسنن الله وحكمته فى خلق الإنسان .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليس (خالدين فيها أبدا) الخلود بقاء الشيء مدة طويلة على حال واحدة لا يطرأ عليه فيها تغيير ولا فناء ، والأبد الزمن الممتد ، وتأبد الشيء بقى أبدا وأبد بالمكان أبودا أقام به ولم يبرحه ، أى يدخلونها ويذوقون عذابها حال كونهم خالدين فيها أبدا لا يخرجون منها .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الجزاء سهلا على الله دون غيره لأنه مقتضى حكمته وسننه وليس بالمعزى على قدرته .

وفى هذا تحقير لأمرهم وبيان لأن الله لا يعابأ بهم ولا يبالى بشأنهم .

(يأيتها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) بعد أن أقام الحجة على أهل الكتاب ورد شبهاتهم واقتراحهم ما اقترحوا تعنتا وعنادا - خاطب جميع الناس

وأمرهم بالإيمان وشفعه بالوعد على عمل الخير والوعيد على عمل الشر ، للإيمان إلى أن الحججة قد وضحت والحجة قد لُزمت فلم تبق معذرة في الإعراض والصد عن اتباع الدعوة وقبول الحق من هذا الرسول الكريم ، وقد كان اليهود ينتظرون من الله مسيحا ونبيا بشر بهما أنبياءهم ، فقد جاء في الفصل الأول من انجيل يوحنا - أنهم أرسلوا بعض الكهنة والأخبار إلى يوحنا (يحيى عليه السلام) ليسألوه من هو؟ وكانت قد ظهرت عليه أمارات النبوة - فسألوه أنت المسيح؟ قال لا ، قالوا أنت النبي؟ قال لا - من هذا تعلم أن يهود العرب ونصاراهم لما سمعوا هذه الآية زمن التنزيل فهموا أن المراد به الرسول الذى بشرهم به موسى صلى الله عليه وسلم فى التوراة فى سفر تثنية الاشتراع وعيسى فى الإنجيل وغيرهما من الأنبياء .

(فآمنوا خيرا لكم) أى فآمنوا يكن الإيمان خيرا لكم لأنه يزيكم ويطهركم من الدنس والرجس ويؤهلكم للسعادة الأبدية .

(وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض) أى وإن تكفروا فإن الله غنى عن إيمانكم وقادر على جزائكم بما يقتضيه كفركم وسوء عملكم ، فإن له ما فى السموات والأرض ملكا وخالقا وكلهم عبيده ينقادون لحكمه طوعا أو كرها ، فعبادة الكره وعدم الاختيار تكون بالخضوع لقدرته وسننه فى الأكوان وهى عامة فى جميع الخلق سواء منها العاقل وغيره ، وعبادة الاختيار خاصة بالمؤمنين الأخيار والملائكة الأبرار .

(وكان الله عليا حكيا) أى وكان شأنه تعالى العلم المحيط والحكمة السكاملة فى جميع أفعاله وأحكامه فهو لا يخفى عليه أمركم فى إيمانكم وكفركم وسائر أحوالكم ، ومن حكمته أن يجازيكم على ما تجتريحون من الآثام والموبقات ، فإنه لم يخلقكم عبثا وإن يترككم سدى فطوبى لمن نهى النفس عن الهوى وآثر الآخرة على الدنيا ، وويل لمن أعرض عن ذكر ربه وأعرض عن أمره ونهيه وحالف الشيطان وحزبه .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
 إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ
 مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ
 إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
 عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
 فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا
 وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
 وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

شرح المفردات

الغلو: مجاوزة الحد ، وكلته أى إنه حدث بكلمة كن من غير مادة معتادة، ألقاها
 إلى مريم : أوصلها وأبلغها إياها ، وروح منه أى لأنه خلق بنفخ من روح الله
 وهو جبريل ، الاستنكاف : الامتناع عن الشيء أفقه وكبرا ، والاستكبار أن يجعل
 الإنسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه غرورا وإعجابا بها .

المعنى الجملى

بعد أن انتهى من محاجة اليهود وإقامة الحجة عليهم ، وهم قد غلوا في تحقير
 عيسى وإهانته وكفروا به - ذكر هنا محاجة النصارى خاصة ودحض شبهاتهم ،
 وهم قد غلوا في تعظيم عيسى وتقديسه ، كما دحض شبهات اليهود فيما سلف .

الإيضاح

(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) أى لا تتجاوزوا الحدود التى حدها الله ، فإن الزيادة فى الدين كالتقص فيه ، ولا تعتقدوا إلا القول الحق الثابت بنص دينى متواتر ، أو برهان عقلى فاطع ، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتحاد والحلول واتخاذ الصاحبة والولد شىء منها .

(إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله) إلى بنى إسرائيل ، وقد أمرهم بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وزهدهم فى الدنيا ، وحشهم على التقوى ، وبشرهم بمحمد خاتم النبيين ، وأرشدهم إلى الاعتدال فى كل شىء فهداهم إلى الجمع بين حقوق الأبدان وحقوق الأديان .

(وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) وهو مكون بكلمته وأمره الذى هو « كن » من غير واسطة أب ولا نطفة ، فإنه لما أرسل إليها الروح الأمين جبريل بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاماً زكياً فاستنكرت ذلك إذ هى عذراء لم تزوج فقال لها : « كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فكلمة (كن) هى الكلمة الدالة على التكوين بمحض القدرة عند إرادة خلق الشىء وإيجاده .

وهو أيضاً مؤيد بروح منه كما قال تعالى : « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » وكما قال فى صفات المؤمنين « أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ » . وآية الله فى خلق عيسى بكلمته وجعله بشراً سوياً بما نفخ فيه من روحه كآيته فى خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه فخلقهما كان بغير السنة العامة فى خلق الناس من ذكر وأُنثى « إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » :

وزعم بعض النصارى أن كلمة (منه) تدل على أن عيسى جزء من الله بمعنى أنه ابنه ، فقد نقل بعض المفسرين أن طيبيا نصرانيا للرشد ناظر على بن حسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا الآية ، فقرأ له الواقدي قوله تعالى : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » فلتن صرح ما تقول لزم أن تكون جميع هذه الأشياء جزءاً منه تبارك وتعالى - فأفحم النصارى وأسلم ففرح بذلك الرشيد ووصل الواقدي بصلة عظيمة .

وقد جاء في إنجيل متى (أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس) . (وفي إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيرها بإياها بولد ومحاورتهما في ذلك ، ومنها أنها سألت عن كيفية ذلك فقال لها (الروح القدس يحل عليك) .

وفي هذا الفصل أن الیصابات أم يحيى امتلأت من الروح القدس وبذلك حمت بيحيى وكانت عاقرا وأن زكريا أباه امتلأ من الروح القدس .

ومن هذا تعلم أن روح القدس عندهم وعندنا واحد وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصى عددهم وأن عيسى خلق بواسطته وكذلك يحيى وكان خلقه من وجه آخر إذ كان أبوه شيخا كبيرا وأمّه عاقرا ولكن الواسطة والسبب واحد وهو الملك المسى بروح القدس أيدهم الله به رجالا ونساء فلا يستفاد إذاً من قوله : وروح منه ، أنه جزء من الله ، تعالى الله عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقته .

(فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة) أى فآمنوا بالله إيماناً يليق به ، وهو أنه واحد أحد تنزه عن صفات الحوادث ، وأن كل مافى الكون مخلوق له وهو الخالق له ، وأن الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى الیابس منها ، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها ، وآمنوا برسله كلهم إيماناً يليق بشأنهم وهو

أنهم عبيد له خصهم بضروب من التكريم والتعظيم وألههم بضرب من العلم والهداية بالوحي ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه ، ولا تقولوا : الآلهة ثلاثة الآب والابن وروح القدس ، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر ، وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله واحد .

فإن في هذا تركا للتوحيد الذى هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء واتباعا لعقيدة الوثنيين ، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول ولا يقبله أولو الأبواب . (انتهوا خيرا لكم) أى انتهوا عنه وقولوا قولاً آخر خيراً لكم منه ، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه ، فإن المسيح الذى سميتوه إلهاً يقول كما فى إنجيل يوحنا (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

(إنما الله إله واحد) بالذات منزّه عن التعدد ، فليس له أجزاء ولا أقانيم ولا هو مركب ولا متعدد بشيء من الخلوقات .

(سبحانه أن يكون له ولد) أى تقدس عن أن يكون له ولد كما قلتم فى المسيح إنه ابنه وإنه عينه فإنه تبارك وتعالى ليس له مماثل فيكون له منه زوج يتزوجها فتلد له ولداً .

والتعبير بالولد دون الابن الذى يعبرون به فى كلامهم ، لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقى الذى يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولداً أى مولوداً من تلقىح أبيه لأمه وهذا محال على الله تعالى ، وإن أرادوا الابن المجازى لا الحقيقى فلا خصوصية لعيسى فى ذلك لأنه قد أطلق فى كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وغيرهما من الأخيار .

(له مافى السموات ومافى الأرض) أى إنه ليس له ولد يصح أن يسمى ابناً له . حقيقة بل له كل مافى السموات ومافى الأرض خلقاً وملكاً والمسيح من جملتها كما قال تعالى : « إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » .

ولا فرق في هذا بين الملائكة والنبیین ، ولا بين من خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم ، ومن خلقه من أصل واحد كحواء وعيسى ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى ، فكل هؤلاء عبيده يحتاجون إلى فضله وكرمه وجوده وهو يتصرف فيهم كما يشاء .

(وكفى بالله وكيلًا) أى كفى به حافظًا ووكيلًا إذا وكلوا أمورهم إليه ، فهو غنى عن الولد فإن الولد إنما يحتاج إليه أباه ليعينه في حياته ، ويقوم مقامه بعد وفاته ، والله تعالى منزّه عن كل ذلك .

هذا ، وعتيدة الثلاث وثنية نقلها الوثنيون المتنصرون إلى النصرانية واعتمدوا في ذلك على بعض ألفاظ في الكتب اليهودية جعلوها توكّاهً على ما أرادوا وحرّفوا فيها وأولوا لتنفيذ ما ادعوا ، وبذا هدموا آيات التوحيد ، وقد فصل ذلك علماء أوروبا وأتوا عليه بشواهد كثيرة من الآثار القديمة والتاريخ ، فقال البحاثه موريس في كتابه (الآثار الهندية القديمة) كان عند أكثر الأمم البائدة تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي أو الثلاثي .

وقال مستر فابر في كتابه (أصل الوثنية) كما نجد عند الهنود ثلاثًا مؤلف من برهما وفشنو وسيفا ، نجد عند البوذيين ثلاثًا فإنهم يقولون إن (بوذه) إله ثلاثة أقانيم كما نقول الهنود .

وقال مستردوان في كتابه (خرافات التوراة) وكان قيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالث المقدس في تعليمهم المبتدئين بقولهم إن الأول خلق الثاني وهما خلقا الثالث وبذلك تم الثالث المقدس ، وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تيشو كى - هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ وهل يكون بعده أحد أعظم منه ؟ فأجابه الكاهن : نعم يوجد من هو أعظم وهو الله قبل كل شيء ثم الكلمة ومعهما روح القدس ، ولهذا الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعندهم صدرت القوة الأبدية ، فاذهب يا فاني يا صاحب الحياة القصيرة ، ثم قل المؤلف لا ريب أن تسميه الألقوم

الثانى من الثالوث المقدس (كلمة) هو من أصل وثنى مصرى دخل فى غيره من الديانات المسيحية و (أبولو) المدفون فى (دهلى) يدعى الكلمة، وفى علم اللاهوت الإسكندرى الذى كان يعلمه (بلاتو) قبل المسيح بسنين عدة (الكلمة هى الإله الثانى) ويدعى أيضا ابن الله البكر، وقال هيجين فى كتابه (الانكلوسكسون) كان الفرس يسمون (متروسا) الكلمة والوسيط ومخلص الفرس، وقال دوان : كان الفرس يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم مثل الهنود ويسمون الأقانيم (أوزمرد . مترات . أهرمن) . فأوزمرد الخلاق ومترات ابن الله المخلص والوسيط . وأهرمن الملك ، والمشهور عن مجوس الفرس التثنية دون التثليث فكانوا يقولون بإله هو مصدر النور والخير وإله هو مصدر الظلمة والشر .

وقال صاحب كتاب (ترقى الأفكار الدينية) إن اليونانيين كانوا يقولون إن الإله مثلث الأقانيم وكان قساوستهم إذا شرعوا فى تقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات (إشارة إلى الثالوث) ويرشون المجتمعين حول المذبح ثلاث مرات ، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويعتقدون أن الحكماء قالوا إنه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة ولهم اعتناء بهذا العدد فى جميع شعائرهم الدينية .

وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول نصرانية قسطنطين فيهم ، هذه الشعائر كلها ونسخت بها شريعة المسيح التى هى التوراة ، وظلموا المسيح بنسبتها إليه .
والخلاصة — إن الديانة النصرانية بنيت على أساس التوحيد الخالص فحولها الكهنة إلى ديانة وثنية تقول بتثليث غير معقول أخذوه من تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة اقتباسا مشوها ، ونسخوا شريعة سماوية برمتها واستبدلوا بها بدعا وتقاليد غريبة عنها ، فقد كانت ديانة زهد وتواضع فجعلوها ديانة طمع وجشع وكبرياء وترف وأثرة واستعباد للبشر ، ديانة نسبوها إلى المسيح

وليس عندهم نص فيها يدل على التثليث ، بل عندهم نصوص من كلامه تدل على التوحيد وإبطال التثليث ، ولو لم يكن عندهم من النصوص في هذه العقيدة إلا مارواه يوحنا في إنجيله لكفى من قوله عليه السلام (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فهذا نص واضح في أنه هو الإله وحده وأنه هو رسوله .

وقال مرقس في الفصل الثاني عشر من إنجيله : إن أحد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا فأجاب ، أول الوصايا : اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد الخ ، فقال له الكاتب (جيدا) يا معلم بالحق قلت لأنه واحد وليس آخر سواه ، فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له (لست بعيدا عن ملكوت السموات) ومن هذا النص يعلم أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل ^(١) .

(لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) أى لن يأنف المسيح ولن يترفع عن أن يكون عبدا لله لعلمه بعظمة الله وما يجب له من العبودية والشكر ، ولا الملائكة المقربون يستنكف أحد منهم أن يكون عبدا له .

ومن هذه الآية يفهم أن الملائكة أعظم من المسيح خلقا وأفعالا ، ومنهم روح القدس الذى بنفخة منه خلق المسيح ، ومن ثم استدل بها كثير من العلماء على تفضيل الملائكة المقربين على الأنبياء . إذ السياق في رد غلوّ النصارى في المسيح باتخاذها إلهيا ورفعها عن مقام العبودية فالرد عليهم يقتضى الترقى من الرفيع إلى الأرفع كما تقول إن فلانا التقى لا يستنكف من تقبيل يد الوزير ولا الأمير ، فإذا بدأت بذكر الأمير لم يعد لذكر الوزير فائدة ، بل يكون لغوا لأنه يندمج في الأول بالطريق الأولى .

وقال آخرون إن الآية لا تدل على ذلك لأنها في معرض تفضيل هؤلاء الملائكة في عظم الخلق والقدرة على الأعمال العظيمة وهو المناسب للرد على من استكبروا خلق

(١) كل ما تقدم في هذا الفصل مأخوذ من تفسير المار .

المسيح من غير أب وصدور بعض الآيات عنه فجعلوه إلها ، مع أن الملائكة خلقوا من غير أب ولا أم ويعملون ما هو أعظم من آيات المسيح فهم بهذا أفضل منه وأعظم . وأيا كان فالنفاضل في هذا من الرجم بالغيب ، إذ لا يعلم إلا بنص مع أنه ليس له فائدة في إيمان ولا عمل .

(ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) أى ومن يترفع عن عبادته تعالى أنفة وكبرا فيرى أنه لا يليق به ذلك فيحشره أشد الجزاء ، إذ يحشر الناس جميعا للجزاء المستنكفين منهم والمستكبرين مع غيرهم في صعيد واحد كما ورد في الحديث ثم يحاسبهم ويحزيهم على أعمالهم .

(فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أى هؤلاء الذين عملوا الصالحات سيعطيهم أجورهم وافية كاملة على إيمانهم وعملهم الصالح على حسب سنة الله في ترتيب الجزاء على مقدار تأثير الإيمان والعمل الصالح في النفس وتزكيتها وطهارتها من أدران الشرور والآثام .

(وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما) أى هؤلاء يعذبون عذابا مؤلما يستحقونه على حسب سنن الله أيضا ، لكن لا يزيدهم على ما يستحقون شيئا ، لأن رحمته سبقت غضبه ، فهو يجازى المحسن على إحسانه بالعدل والفضل ويجازى المسيء على إساءته بالعدل .

(ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) أى لا يجدون لهم من غير الله تعالى وليا يلى أمورهم ويدبر مصالحهم ، ولا نصيرا ينصرهم من بأسه ويرفع عنهم العذاب إذ لا عاصم اليوم من أمر الله (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٧٥)

المعنى الجملى

بعد أن حاج أهل الزيغ والضلال جميعا ، فحاج النصارى فى الآية السابعة ، وحاج اليهود فى الآية التى قبلها ، وحاج المنافقين والمشركين أثناء السورة وفى سور كثيرة غيرها وأقام الحجة عليهم جميعاً ، وظهرت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ظهور الشمس فى رائعة النهار - نادى الناس كافة ودعاهم إلى اتباع برهانه والاهتداء بنوره .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ) أى قد جاءكم من قبل ربكم برهان جلى يبين لكم حقيقة الإيمان بالله وجميع ما أتم فى حاجة إليه من أمر دينكم مؤيد بالدلائل والبيّنات ، ألا وهو النبى الأُمى الذى هو برهان على حقيقة ما جاء به بسيرته العملية ودعوته التشريعية ، فإن أمياً لم يتعلم فى مدرسة ولم يعن فى طفولته بما كان يسمى عند قومه علماً كالشعر والنسب وأيام العرب بل ترك ولدان المشركين وشأنهم ولم يحضر سُمّار قومه ولا معاهد لهُوم ولم يحظ من التربية المنزلية والتأديب الاجتماعى فى أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذى تصدى له فى كهولته ، وهو تربية الأُمم تربية دينية اجتماعية سياسية حربية ، وهو مع هذا قد قام به على أتم وجهه وأكمل طريق - لهُو برهان على عناية الله به وتأييده إياه بوحيه وهديه .

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) أى وأنزلنا إليكم بما أوحينا إليه كتاباً هو كالنور فى الهداية للناس مبيناً لكل ما أنزل لبيانه من توحيد الله وربوبيته وهو المقصد

الأعلى الذى بعث به جميع الرسل وكان كل منهم يدعو أمته إليه ويستجيب له الناس بقدر استعدادهم لفهم حقيقته ثم لا يلبثون أن يشوهوه بالشرك وضروب الوثنية التى تدنس النفوس وتهبط بها من أوج العزة والكرامة إلى المهانة والذلة بالخضوع لبعض المخلوقات من جنسهم أو من أجناس أخرى .

ولما تغافلت الوثنية فى جميع الأديان المعروفة وأفسدتها على أهلها أنزل الله هداية البشر هذا النور المبين وهو القرآن ، فبين لمن يفهم اغته حقيقة التوحيد بالدلائل والبراهين السكونية والعقلية مع ضرب الأمثال وذكر شئ من القصص لكشف ما ران على هذه العقيدة من شبهات المضين وأوهام الضالين التى مزجتها بالشرك . هذا البيان الذى جاء به القرآن لتقرير التوحيد واجتثاث جذور الوثنية لم يكن معهودا مثله من الحكماء ولا من الأنبياء ، فمن ثم وجب أن يكون من رب العالمين « وَإِنَّهُ لَكَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ » .

والخلاصة — أن محمدا النبى الأسمى صلى الله عليه وسلم كان برهانا على حقيقة دينه وكتابه القرآن أنزل من العلم الإلهى ولم يكن لعله الكسبى أن يأتى بمثله ، وأنزل نورا مبينا لجميع الناس ما هم فى حاجة إليه فى معاشهم ومعادهم ليتدبروا آياته ويسعدوا به فى حياتهم الدنيا وينالوا به الخير فى العقبى .

(فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل) الاعتصام التمسك بما يعصم ويحفظ أى فأما الذين يعتصمون بهذا القرآن فيدخلهم الله فى رحمة خاصة منه لا يدخل فيها سواهم ، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم ، ولكنه يختص من يشاء بما شاء من أنواعهما ، وقال ابن عباس : الرحمة الجنة ، والفضل ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(ويهديهم إليه صراطا مستقيما) أى ويهديهم طريقا قويا وهداية خاصة تبلغهم السعادة فى الدنيا بالعزة والكرامة وفى الآخرة بالجنة والرضوان ، وهذا

الصراف المستقيم لا يهتدي إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم واتباع سنة سيد المرسلين، والمراد أنه يوفقهم ويثبتهم على تلك الهداية إلى الصراط المستقيم، وسكت عن القسم الآخر المقابل لهؤلاء المؤمنين المعتصمين للإيذان بأنه بعد ظهور البرهان لا ينبغي أن يوجد، وإن وجد لا يؤبه له ولا يهتم بشأنه .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ، إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْهُنِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم في أول السورة في أحكام الأموال ختم آخرها بذلك ليكون الآخر مشاكلاً للأول، والوسط مشتمل على المناظرة مع فرق المخالفين للدين :
 روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله قال : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لأعقل فتوضأ ثم صب على ففعلت ، فقلت إنه لا يرثني إلا كلالته فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الميراث (يريد هذه الآية) » .
 وروى ابن عبد الرزاق وابن جرير عن ابن سيرين قال « نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله) والنبي صلى الله عليه وسلم في مسير له وإلى جنبه حذيفة بن اليمان فبلغها النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه ، فاما استخلف عمر سأل عنها حذيفة ورجا أن يكون عنده تفسيرها ، فقال له حذيفة : والله إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملنى على أن أحدثك ما لم أحدثك

يومئذ . فقال عمر لم أرد هذا رحمتك الله » قال الخطابي أنزل الله في الكلالة آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النساء وفيها إجمال وإيهام لا يكاد يتبين المعنى من ظاهرها ، ثم أنزل الآية الأخرى في الصيف وهي التي في آخرها وفيها من زيادة البيان ما ليس في آية الشتاء ، فأحال السائل عليها ليتبين المراد بالكلالة المذكورة فيها اه .

الإيضاح

(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) الكلالة : ما عدا الوالد والولد من القرابة وقيل الإخوة من الأم ، قال في لسان العرب - وهو المستعمل - والمعنى يطلبون منك أيها النبي الفتيا فيمن يورث كلالة كجابر بن عبد الله الذي ليس له والد ولا ولد وله أخوات من العصبه لم يفرض لهم شيء في التركة من قبل ، وإنما فرض للإخوة من الأم السدس للواحد منهم والثلث لما زاد على الواحد وهم شركاء فيه مهما كثروا لأنه ميراث أمهم ليس لها سواء - فقل لهم جوابا عما سألتهم عنه .

(إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك) هلك مات - أي إن هلك امرؤ غير ذي ولد والحال أن له أختا من أبويه معا أو من أبيه فقط فلها نصف ما ترك .

(وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) أي والأخ يرث أخته إذا ماتت إن لم يكن لها ولد ذكر ولا أنثى ولا والد يحجبه عن إرثها ، وإنما أطلق الإرث ولم يبين النصيب لأن الأخ ليس صاحب فرض معين بحيث لا يزيد ولا ينقص بل هو عصبية يحوز كل التركة عند عدم وجود أحد من أصحاب الفروض ، وعند وجود أحد منهم يرث هو معه كلالة جميع ما بقي .

(فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) فإن كان من يرث بالأخوة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوها كلالة ، وكذا إن كن أكثر من ثنتين كأخوات جابر

فقد كن سبعا أو تسعا والباقي لمن يوجد من العصابة إن لم يكن هناك أحد من أصحاب الفروض كالزوجة وإلا أخذ كل ذى فرض فرضه أولا .

(وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) أى وإن كان من يرثون بالأخوة كلاله ذكورا وإناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين كما هى القاعدة فى كل صنف اجتمع منه أفراد فى درجة واحدة إلا أولاد الأم فإنهم شركاء فى سدس أمهم لخلولهم محبتها ولولا ذلك لم يرثوا إذ هم ليسوا من عصابة الميت .

(يبين الله لكم أن تضلوا) أى يبين الله لكم أمور دينكم التى من أولها تفصيل هذه الأحكام كراهة أن تضلوا أى لتتقوا بمعرفتها الضلال فى قسمة التركات وغيرها .

(والله بكل شىء عليم) فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم وصلاح أنفسكم وذلك شأنه فى جميع أفعاله وأحكامه ، فكلها موافقة للحكمة دالة على واسع العلم وعظيم الرحمة .

سورة المائدة

هذه السورة تسمى سورة المائدة وسورة العقود وسورة المنقذة ، وهى مدنية بناء على المشهور من أن المدنى ما نزل بعد الهجرة ولوفى مكة ، وقد روى فى الصحيحين عن عمر : أن قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم الخ » نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

وآياتها مائة وعشرون فى العدالكوفى ، ومائة وثمانان وعشرون فى العد الحجازى ، ومائة وثلاث وعشرون فى العد البصرى .

ووجه التناسب بينها وبين ما قبلها من وجوه :

(١) إن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحة وضمنا ، فالصريح عقود الأنكحة والصدقات والحلف والمعاهدة والأمان ، والضمنى عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة .

(٢) إن سورة النساء مهدت لتحريم الخمر وسورة المائدة حرمتها البتة فكانت متممة لشيء مما قبلها .

(٣) إن معظم سورة المائدة فى محاجة اليهود والنصارى مع ذكر شيء عن المناققين والمشركين ، وقد تكرر ذكر ذلك فى سورة النساء وأطيل به فى آخرها .

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة أن الأولى بدئت بيا أيها الناس وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المكى ، والثانية بيا أيها الذين آمنوا وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المدنى المتأخر عن الأول .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُشْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْمِلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا
الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَعَوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ،
وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنْ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى
الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) .

شرح المفردات

الوفاء والإيفاء: الاتيان بالشيء وافيا لا نقص فيه، قال تعالى : « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ
إِذَا كَلِمْتُمْ » والعقود: واحدها عقد، وهو في الأصل ضد الحل ثم أطلق على الجمع بين
أطراف الشيء وربط بعضها ببعض ، ويستعمل في الأجسام الصلبة كعقد الحبل
وعقد البناء ، ويقال عقد اليمين وعقد النكاح أى أبرمه كما قال تعالى « وَالَّذِينَ
عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » والبهيمة : ما لا نطق له لما فى صوته من الإيهام ، وخص فى العرف
بما عدا السباع والطيور ، والأنعام : البقر والإبل والغنم ، الحرم : جمع حرام ، وهو
الحرم بالحج أو العمرة ، وشعائر الله معالم دينه ، وغلب فى مناسك الحج واحدها
شعيرة ، والهدى ، وهو ما يهذى إلى الكعبة من الأنعام ليذبح هناك ، وهو من
النسك ، والقلائد : واحدها قلادة وهو ما يعلق فى العنق ، وكانوا يقلدون الإبل من
الهدى بنعل أو حبل أو لحاء شجر ليعرف فلا يتعرض له أحد ، آمين أى قاصدين ،
وفضلا أى ربحا فى تجارتهم ، ورضوانا أى رضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته
فى الدنيا ، يجرمنكم : من جرمة الشيء أى حمله عليه وجعله يجرمه أى يكسبه ويفعله ،
وأصل الجرم قطع الثمرة من الشجرة ، والشنان : البغض مطلقا ، أو الذى يصحبه التقزز
من المبعوض .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) روى عن ابن عباس : أن المراد بالعقود عهود الله التي عهد بها إلى عباده أى ما أحل وما حرم وما فرض وما حدّ في القرآن كله لا غدر فيها ولا نكث ، وقال الراغب : العقود ثلاثة أضرب عقد بين الله وبين العبد ، وعقد بين العبد ونفسه ، وعقد بينه وبين غيره من البشر .

وكل واحد منها إما أن يوجب العقل الذى أودعه الله في الإنسان ويتوصل إليه بديهية العقل أو بأدنى نظر ويدل على ذلك قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذَرَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ» وإما أن يوجب الشرع وهو ما دلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وأساس العقود في الإسلام هو هذه الجملة (أوفوا بالعقود) أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به من قول أو فعل كما أمر الله مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما كالعقد على أكل شيء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر (القمار) والرشوة ونحو ذلك .

ثم شرع يفصل الأحكام التي أمر بالإيفاء بها وبدأ بما يتعلق بضروريات معاشهم فقال :

(أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أى أحل الله لكم أكل البهيمة من الأنعام وهى الأزواج الثمانية المعدودة في سورة الأنعام وألحق بها الطيأ وبقر الوحش ونحوها ، إلا ما حرم فيما سيتلى عليكم في الآية الثالثة من هذه السورة (حرمت عليكم الميتة والدم) الخ .

(غير محلى الصيد وأنتم حرم) أى أحلت لكم بهيمة الأنعام حال كونكم غير محلى الصيد الذى حرمه الله عليكم : أى لا تجمعوه حلالا باصطياده أو الأكل منه وأنتم محرمون بالحلج أو العمرة أو كليهما أو داخلون في أرض الحرم فلا يحل الصيد لمن كان

في أرض الحرم ولو لم يكن محرما ولا للمحرم بالحج أو العمرة وإن كان في خارج حدود الحرم بأن نوى الدخول في هذا النسك وبدأ بأعماله كالتلبية ولبس الخيط .
والخلاصة — أحلت لكم هذه الأشياء غير محلي الاصطياد ولا أكل الصيد في الإحرام .

(إن الله يحكم ما يريد) الحكم القضاء أى إن الله جل ثناؤه يقضى في خلقه ما يشاء من تحمیل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه كما شاء على حسب الحكم والمصالح التي يعلمها سبحانه فأوفوا بعقوده وعهوده ولا تنكثوها ولا تنقضوها .

(يأياها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) شعائر الله ما أراد جعله أمارات تعلمون بها الهدى من الضلال كناسك الحج وسائر فرائض دينه من حلال وحرام وحدود حدها لكم .

والمعنى — يأياها الذين آمنوا لا تجعلوا شعائر دين الله حلالا لكم تتصرفون فيها كما تشاءون بل اعملوا بما بينه لكم ، ولا تنهونوا بحرمتها وتحولوا بينها وبين المتنسكين بها وتصدوا الناس عن الحج في أشهر الحج .

(ولا الشهر الحرام) المراد به هنا ذو القعدة وذو الحجة والحرم أى ولا تحلوا الشهر الحرام بأن تقاتلوا فيه أعداءكم من المشركين كما روى عن ابن عباس وقتادة .
(ولا الهدى) أى ولا تحلوا الهدى الذى يهدى إلى البيت الحرام من الأنعام للتوسعة على من هناك من عاكف وباد تقربا إلى الله ، وذلك بأن تمنعوا بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصبا وذبحه أو سرقة أو حبسه عند من أخذه .

(ولا القلائد) ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى وهى البدن ، وكأنه قال لا تحلوا الهدى مقلدا ولا غير مقلد ، وخص المقلد بالذكر لأنه أكرم الهدى وأشرفه .
(ولا آمين البيت الحرام) أى ولا تحلوا قتال قاصدى البيت الحرام لزيارته ، تصدوهم عن ذلك بأى وجه كان .

(يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) أى يطلبون ربحا فى التجارة ورضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته فى الدنيا لئلا يحل بهم ما حل بغيرهم فى عاجل دنياهم .
وهذا كلام مع المشركين ، كما روى عن قتادة أنه قال : هم المشركون يلبسون فضل الله ورضوانه فيما يصلح لهم دنياهم ، وفى رواية أخرى عنه : والرضوان الذى يبتغون أن يصلح لهم معاشهم فى الدنيا وألا يعجل لهم العقوبة .
(وإذا حللتم فاصطادوا) أى إذا خرجتم من إحرامكم بالخرج أو العمرة أو من أرض الحرم فاصطادوا إن شئتم فإنما حرم عليكم الصيد فى أرض الحرم وفى حال الإحرام فقط .

وهذا تصريح بمفهوم قوله فى الآية السابقة (غير محلى الصيد وأتم حرم) .
(ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) أى ولا يحلمانكم بغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام ، وقد كان المشركون صدوا المؤمنين عن العمرة عام الحديبية ، فهى المؤمنون أن يعتدوا عليهم عام حجة الوداع وهو العام الذى نزلت فيه هذه السورة لأجل اعتدائهم السابق .
ولما كان اعتداء قوم على قوم لا يحصل إلا بالتعاون قفى على النهى عن الاعتداء بقوله :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) البر : التوسع فى فعل الخير ، والتقوى : اتقاء ما يضر صاحبه فى دنه أو دنياه ، والإثم : كل ذنب ومعصية ، والعدوان : تجاوز حدود الشرع والعرف فى المعاملة والخروج عن العدل فيها ، وفى الحديث « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى النفس وكريت أن يطعن عليه الناس » رواه مسلم وأصحاب السنن ، وروى أحمد والداريمى عن وابصة بن معبد الجهني أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ، قلت نعم » وكان قد جاء لأجل ذلك ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما فى نفسه وأجابه

فقال : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

والأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن ، إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضا على كل ما ينفع الناس أفرادا وجماعات في دينهم ودنياهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفساد والمضار عن أنفسهم .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد كما تفعله الجماعات اليوم فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره ، ولكن لما نكثوا ذلك العهد صاروا في حاجة إلى تأليف هذه الجماعات لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب (التعاون على البر والتقوى) .

وقلما ترى أحدا الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطا بعهد معك لغرض معين ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالبا . (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) أى اتقوا الله باسیر على سننه التي بينها لكم في كتابه وفي نظم خلقه حتى لا يصيبكم عقابه بالإعراض عن هدايته ، فهو شديد العقاب لمن لم يتقه باتباع شرعه ومراعاة سننه في خلقه ، إذ لا محاباة ولا هوادة في عقابه ، فهو لم يأمر بشيء إلا إذا كان نافعا ولم ينه عن شيء إلا إذا كان ضارا ، وكذلك بعدم مراعاة السنن لأن لذلك تأثيرا في خلق الإنسان وعقائده وأعماله وكل ذلك مما يوقعه في الفوارة وينتهى به إلى سوء العاقبة .

وهذا العقاب يشمل عقاب الدنيا والآخرة كما جاء في بعض الآيات التصريح بذلك ، وفي بعضها التصريح بأحدهما كقوله في عذاب الأمم في الدنيا « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ
وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَنسَقُ، الْيَوْمَ يَنْسَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا،
فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣).

الإيضاح

هذا شروع في بيان المحرمات التي أشير إليها في أول السورة بقوله (إلا ما يتلى عليكم) وهي عشرة أنواع :

(الأول الميتة) ويراد بها عرفا مامات حتف أنه أى بدون فعل فاعل، ويراد بها في عرف الشرع مامات ولم يذكر الإنسان لأجل أكله، والحكمة في التحريم :
(١) استقذار الطباع السليمة لها .

(٢) إن في أكلها مهانة تنافي عزة النفس وكرامتها .

(٣) الضرر الذي ينشأ من أكلها سواء كانت قد ماتت بمرض أو شدة ضعف أو بجراثيم (ميكروبات) انحلت بها قواها .

(٤) تعويد المسلم ألا يأكل إلا مما كان له قصد في إزهاق روحه .

(الثاني الدم) والمراد به الدم المسفوح : أى المائع الذي يسفح ويراق من الحيوان وإن جدد ذلك ، بخلاف المتجمد طبيعة كالطحال والكبد وما يتخلل اللحم عادة . فإنه لا يسمى مسفوحا .

وحكمة تحريم الدم الضرر والاستقذار أيضا ، أما الضرر فلأنه عسر الهضم جد . العسر ويحمل كثيرا من المواد العفنة التي تنحل من الجسم . وهي فضلات لفظتها .

الطبيعة كما تنفط البراز ونحوه واستعاضت عنها بمواد جديدة من الدم ، وقد يكون فيه جراثيم . بعض الأمراض المعدية وهي تكون فيه أكثر مما تكون في اللحم ومن أجل هذا اتفق الأطباء على وجوب غلي اللبن قبل شربه لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية .

(الثالث لحم الخنزير) لما فيه من الضرر والاستفذار للملازمة للقاذورات ورغبته فيها ، أما ضرره فقد أثبتته الطب الحديث ، إذ أثبت أن له ضررا يأتى من أكله القاذورات ، فإن ذلك يولد الديدان الشريطية كالودودة الوحيدة ودودة أخرى تسمى الشعرة الخلزونية وهي تنشأ من أكله الفيران الميتة ، كما أثبت أن لحمه أعسر اللحوم . هضا لكثرة الشحم فى أليافه العضلية ، وأن المواد الدهنية التى فيه تمنع وصول عصير المعدة إلى الطعام فيعسر هضم المواد الزلالية وتتعب المعدة آكله ويشعر بثقل فى بطنه واضطراب فى قلبه ، فإن زرعه التى قذف هذه المواد الخبيثة خف ضرره ، وإلتهيجت المعدة وأصيب بالإسهال ، ولولا أن العادة قد جرت بتناول السموم أكلا وشربا وتدخيننا ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لما أمكن الناس أن يأكلوه ولا سيما أهل البلاد الحارة .

(الرابع ما أهل غير الله به) الإهلال رفع الصوت ، يقال أهل فلان بالحنج إذا رفع صوته بالتلبية له ، واستهل الصبي إذا صرخ عند الولادة والمراد به ما ذبح على ذكر غير الله تعالى من الخلوقات التى يعظمها الناس تعظيما دينيا ويتقربون إليها بالذبايح ، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم باسم اللات أو باسم العزى . وحكمة التحريم فى هذا أنه من عبادة غير الله ، فلا كل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه وهو مما يجب إنكاره لا إقراره .

ويدخل فى ذلك ما ذكر عند ذبحه اسم نبي أو ولى كما يفعل بعض أهل الكتاب وجهلة المسلمين الذين اتبعوا من قبلهم وساروا على نهجهم باعا فباعا وذراعا فذراعا .

(الخامس المنخقة) وقد روى ابن جرير في تفسيرها أقوالا ، فمن السدى أنها التى تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتختنق فتموت ، وعن ابن عباس والضحاك هى التى تختنق فتموت ، وفى رواية عن الضحاك هى الشاة توثق فيقتلها خناقها ، ثم قال : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : هى التى تختنق إما فى وثاقها أو بإدخال رأسها فى الموضع الذى لا تقدر على التخلص منه فتختنق حتى تموت .

وهى بهذا المعنى من قبيل ما مات حتف أنفه من حيث إنه لم يمت بتذكية الإنسان له لأجل أكله هى داخلة فى الميتة ، وإنما خصها بالذكر لأن بعض العرب فى الجاهلية كانوا يأكلونها ، ولئلا يشتبه فيها بعض الناس لأن لموتها سببا معروفا . والعبرة فى الشرع بالتذكية التى تكون بقصد الإنسان لأجل الأكل حتى يكون واثقا من صحة البهيمة التى يريد التغذى بها .

(السادس الموقوذة) الوقذ : شدة الضرب ، وشاة وقيد وموقوذة ، والموقوذة هى التى تقتل بعضا أو بحجارة لاحد لها فتموت بلا ذكاة ، وكانوا يأكلونها فى الجاهلية . والوقذ يحرم فى الإسلام لأنه تعذيب للحيوان ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن .

ولما كان الوقذ محرما حرم ما قتل به ، وهى تدخل فى عموم الميتة على الوجه الذى ذكرنا فإنها لم تذك تذكية شرعية ، ويدخل فى الموقوذة مارى بالبندق (وهو نحو كرة من الطين تحفف ويرمى بها بعد ييسها) لما روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف (الرمي بالحصى والخرف وكل يابس غير محدد سواء رمى باليد أو الخذفة أو القلاع) وقال : إنه لا يفتأ العين ولا ينكى العدو ولا يحرز صيدا فى هذا الحديث نص على العلة وهو أنه تعذيب للحيوان وليس سببا مطردا ولا غالبا للقتل .

أما بندق الرصاص المستعمل الآن وما في حكمه فإنه يصيد وينكأ ، ولذا أفنى العلماء بجواز الصيد به .

(السابع المتردية) وهى التى تقع من مكان مرتفع كجبل ، أو فى منخفض كبير ونحوها فتموت وهى فى حكم الميتة لأنه لم يكن للانسان عمل فى إماتها ولا قصد به إلى أكلها .

(الثامن النطيحة) وهى التى تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النطاح من غير أن يكون للانسان عمل فى إماتها .

(التاسع ما أكل السبع) وهو ما قتله بعض سباع الوحوش كالأسد والذئب والنمر لياأكله ، وأكله منه ليس بشرط للتحريم إذ يكفى فرسه إياه وقتله فى تحريمه .

وكان العرب فى الجاهلية يأكلون بعض فرائس السباع ، ولكنه مما تأنفه أكثر الطباع ، وأكثر الناس يعد أكله ذلة ومهانة وإن كانوا لا يخشون منه ضررا . (إلا ما ذكيتم) أى إلا ما أدركتموه وفيه بقية حياة ويضطرب اضطراب

المذبوح فذكيتموه وأتمموه إماتة شرعية لأجل أكله - وهو استثناء من جميع ما تقدم ذكره من المحرمات سوى ما لا يقبل التذكية من الميتة والدم والخنزير وما أكل السبع ، وذلك هو - ما أهل لغير الله به والمنخقة والموقودة والمتردية والنطيحة .

وخلاصة المعنى - ولكن لا يحرم عليكم ما ذكيتموه بفعلكم مما يقبل التذكية ، ويكفى فى صحة إدراك ذكاة ما ذكر أن يكون فيه رمق من الحياة بأن يطرف بعينه أو يضرب بذنبه ، وقد قال على كرم الله وجهه : إذا أدركت ذكاة الموقودة والمتردية والنطيحة وهى تحرك يدا أو رجلا فكلها .

(العاشر ما ذبح على النصب) والنصب واحد الأنصاب ، وهى حجارة كانت حول الكعبة عددها ثلاثمائة وستون حجرا وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة .

ومن هذا تعلم أن ما ذبح على النصب هو من جنس ما أهل به لغير الله من حيث أنه يذبح بقصد العبادة لغير الله تعالى ، وخص بالذكر لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل

لتقصد تعظيم البيت الحرام إذا لم يذكر اسم غير الله عليه ، وهو من خرافات الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها .

وخلاصة ما تقدم - إن الله تعالى أحل أكل بهيمة الأنعام وسائر الطيبات من الحيوان ، مادب منها على الأرض ، وما طار في الهواء ، وما سبح في البحر ، ولم يحرم إلا الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .

وقد كان بعض العرب يذبح الحيوان على اسم غير الله وهو شرك وفسق ، وبعضهم يأكل الميتة ويقول لم نأكل من ما قتلناه ولا نأكل من ما قتل الله ؟ ولكن في هذا مظنة الضرر ، وفيه مهانة للنفس ، ومن ثم جعل الله حل أكل المسلم لذلك منوطا بإتمام موته والإجهاز عليه بفعله هو ليدكر اسم الله عليه فلا يكون من عمل الشرك ، ولثلا يقع في مهانة أكل الميتة وخسة آكلها بأكله المنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وفريسة السبع - إلى ما في الموقودة من إفرار الواقد على القسوة وظلم الحيوان وذلك محرم شرعا .

ثم أضاف إلى محرمات الطعام التي كان أهل الجاهلية يستحلونها عملا آخر من أعمالهم وخرافاتهم فقال :

(وأن تستقسموا بالأزلام) الأزلام واحدها زلم ، وهو قطعة من الخشب على هيئة السهم ، لكن لا يركب فيه النصل الذي يخرج ما يرمى به من صيد وغيره ، وكانت الأزلام ثلاثة ، كتب على أحدها « أمرني ربي » وعلى الثاني « نهاني ربي » والثالث غفل ليس عليه شيء فإذا أراد أحدهم سفرا أو غزوا أو زواجا أو بيعا أو نحو ذلك أجال « حرك » هذه الأزلام ، فإن خرج له الزلم المكتوب عليه « أمرني ربي » مضى لما أراد ، وإن خرج المكتوب عليه « نهاني ربي » أمسك عن ذلك ولم يمض فيه ، وإن خرج الغفل الذي لا كتابة عليه أعاد الاستقسام ، وهو : طلب معرفة ما قسم له دون ما لم يقسم بواسطة الأزلام .

أى وحرّم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام كما كانت تفعل العرب في الجاهلية .

وحكمة هذا التحريم أنه من الخرافات والأوهام التي لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل يفعل ما يفعل عن غير بينة ولا بصيرة ويترك ما يترك كذلك ويجعل نفسه ألعوبة للكهنة والسدنة ويتفاءل ويتشاءم بما لا قال فيه ولا شؤم ، ومن ثم أبطل ذلك دين العقل والبصيرة كما أبطل التطير والكهانة والعيافة والعرافة وسائر خرافات الجاهلية ، إلى أن فيها افتراء على الله إن أرادوا بقولهم « أمرني ربي » الله عز وجل ، وجهلا وشركا إن أرادوا به الصنم ، إلى أن فيه طلبا لعلم الغيب الذي استأثر الله به .

وقد استن بعض جهال المسلمين بسنة مشركي الجاهلية أو بما يشبهها فتراهم يستقسمون بالشبح وغيرها ويسمون ذلك استخارة أو فلا فيقتطعون طائفة من حب السبحة ويحرقونها حبة بعد أخرى ، يقولون : « افعل » على واحدة « لا تفعل » على الثانية ، ويكون الحكم الفصل للحبة الأخيرة ، وما هذا بالاستخارة التي ورد الإذن بها بل قد ورد ما يؤيد تحريمها .

ومنهم من يستقسم أو يأخذ القال من القرآن الكريم فيصبغون عملهم بصبغة الدين ، ويلبسون الباطل ثوب الحق ، ولم يرد في هذا نص يجوز العمل به ولكن الإلف والعادة جعلتا هذه البدع مستحسنة وتأولوا لها اسم القال الحسن ورووا في ذلك حديث أبي هريرة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يعجبه القال الحسن » وليس هذا من القال الحسن ، بل القال ضد الطيرة التي أبطلتها الأحاديث . والعجيب من أمر بعض المسلمين أنهم تركوا الاهتداء بالقرآن وحرموه على أنفسهم واكتفوا من الإيمان به والتعظيم له بالاستقسام به كما كانت الجاهلية تستقسم بالأزلام ، أو الاستشفاء بمداد تكتب به آياته في كاغد أو جام (فنجان) وكل هذا من الضلالات والخرافات التي لم يرد شيء منها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن السلف الصالح .

وأعجب من ذلك جعل بعض الدجالين الاستقسام من قبيل الاستخارة وجعل بعضهم له من قبيل القرعة المشروعة ، وكل ذلك ضلال إذ لا بينة فيه ولا سلطان .

والاستخارة التي وردت بها السنة هي التوجه إلى الله والالتجاء إليه بالصلاة والدعاء بأن يزيل عن الإنسان الحيرة ويرشده إلى ما فيه الفائدة في تتعارض فيه الدلائل والبيّنات فلا يستبين له إن كان الخير في الإقدام أو في التردد ، فإذا شرح الله صدره لشئ أمضاه .

وقد روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن من حديث جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الاستخارة كما يعلمنا سورة من القرآن يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله فاقدّر لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به » قال ويسمى حاجته .

والقرعة تشبه هذا بل أمرها أظهر ، فإنها إنما تكون للترجيح بين المتساويين قطعاً كالقسمة بين اثنين إذ لا وجه للإلزام من تقسم بينهما بأن يأخذ زيد منهما هذه الحصّة وعمرó الأخرى ، فتكون القرعة طريقة حسنة عادلة .

(ذلكم فسق) أى كل محرم مما سلف فسق وخروج من طاعة الله ورغبة عن شرعه إلى معصيته .

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوم واخشون) اليوم هو يوم عرفة من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة وكان يوم الجمعة ، وهو اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية المبينة لما يقر من الأحكام التي أبطل بها الإسلام بقايا مهانة الجاهلية وخبائثها

وأوهامها ، والمبشرة بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم في زواله ، ولا حاجة معه إلى شيء من مداراتهم أو الخوف من عاقبة أمرهم .

روى البيهقي في كتاب شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) يقول يئس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم وهو عبادة الأوثان أبدا (فلا تخشوه) في اتباع محمد (واخشوني) في عبادة الأوثان وتكذيب محمد .
والخلاصة — إن الله أخبر المؤمنين بأن الكفار أنفسهم قد يئسوا من زوال دينهم ، وأنه ينبغي لهم — وقد بدلهم بضعفهم قوة وبخوفهم أمنا وبفقرهم غنى — ألا يخشوا غيره وقد عرفوا فضله وإعزازه لهم .

وإجمال المعنى — انقطع رجائهم من إبطال دينكم ورجوعكم عنه لما شاهدوا من فضل الله عليكم إذ وفى بوعده وأظهره على الدين كله .
(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)
في الآية بشارات ثلاث فسرهما السلف بما سنذكره بعد :

روى عن ابن عباس أنه قال لما كان النبي صلى الله عليه وسلم واقفا بعرفات نزل عليه جبريل وهو رافع يده والمسلمون يدعون الله (اليوم أكملت لكم دينكم) أى حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعده حلال ولا حرام (وأتممت عليكم نعمتى) أى متنى فلم يحج معكم مشرك (ورضيت) أى اخترت (لكم الإسلام دينا) .

وقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية واحدا وثمانين يوما ثم قبضه الله إليه ، وروى ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا أنه قال : أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وقد أتمه فلا ينقص أبدا ، وقد رضيهم فلا يسخط أبدا .

وقال صاحب الكشف : (اليوم أكملت لكم دينكم) كنيتكم أمر عدوكم وجعلت اليد العليا لكم كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك ، وكمل لنا ما نريد .
إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومنافعهم .

(وأتممت عليكم نعمتي) بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية وإبطال مناسكها وأن لم يحج معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريان .
 (ورضيت لكم الإسلام ديناً) يعني اخترته لكم من بين الأديان وأذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » . اهـ
 (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم) الاضطرار : حمل الإنسان على ما يضره وإلجأؤه إليه ، والمخمصة : الحاجة تخمض لها البطون أى تضمر ، والمتجانف للإثم : المائل المنحرف إليه المختار له ، أى فمن وقع في ضرورة تناول شيء من المحرمات بسبب حاجة تخمض لها البطون ويخاف منها الموت أو مبادئه حال كونه غير مختار للإثم بأن يأكل منه ما يزيد على ما يمسك به رمقه ، فإن ذلك حرام كما روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة رضى الله عنهم :

وفي معنى الآية ما جاء في سورة البقرة « فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى فمن اضطر غير طالب له ولا متعدٍّ ومتجاوز قدر الضرورة فلا إثم عليه .
 وإنما اشترط هذا لأن الإباحة للضرورة وهى تقدر بقدرها وذلك نافع للمضطر أدباً وطبعاً لأنه يمنعه أن يتجرأ على ما تعود فيه مهابة له وضرر .

(فإن الله غفور رحيم) أى فمن اضطر إلى أكل شيء مما ذكر فأكل في حاجة لا يجد فيها غيره وهو غير مائل إليه لذاته ولا جائر فيه متجاوز قدر الضرورة ، فإن الله غفور لمثله لا يؤاخذ عليه ، وهو رحيم به يرحمه ويحسن إليه .

ولما كان الأصل في الأشياء الحل لأن الله سخر لنا ما في الأرض جميعاً لننتفع به ، والمحظور علينا هو ما يضرنا ، ولسكن الناس يتصدون أحياناً لفعل ما يضرهم وترك ما ينفعهم ، كما كانت تفعل العرب إذ استباحوا كل الميتة والدم ونحوها من الخبائث ، وحرمت على نفسها بعض الطيبات من الأنعام بخرافات وأوهام باطلة كالبهيرة والسائبة ونحوها - كانت الحاجة ماسة إلى بيان ما يحله الله تعالى مما حرموه بعد بيان ما حرمه مما أحلوه فقال :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ
 الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
 عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)
 الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ
 وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
 مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ
 وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥).

شرح المفردات

الطيبات ضد الخبيث ، والجوارح : واحدها جارحة، وهى الصائدة من الكلاب
 والفهود والطيور من الجرح بمعنى الكسب قال تعالى : « وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِلَهَارٍ »
 أى كسبتم ، ومكلبين من التكليب وهو تعليم الكلاب وإصراؤها بالصيد ثم استعمل
 فى تعليم الجوارح مطلقا ، والمحصنات هنا: الحرأر، وقيل العفيفات عن الزنا ، والأجور
 المهور، والمراد بالمحصنين الأعفاء عن الزنا ، مسافحين مجاهرين بالزنا، متخذى أخدان :
 مسرين به ، والخدن: الصديق يقع على الذكر والأنثى ، حبط عمله: بطل ثواب عمله.

المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى « أن النبى صلى الله عليه وسلم
 لما أمر أباً رافع بقتل الكلاب فى المدينة جاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا

من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ فأنزل الله الآية فقرأها ، وذكر مسألة صيد الكلاب
وأكل ما أمسكن منه كأنه تفسير لها .

الايضاح

(يسألونك ماذا أحل لهم) أى يسألك المؤمنون ماذا أحل الله لهم من الطعام ؟
(قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله)
الطيبات ما تستطيعها النفوس السليمة الفطرة ، المعتدلة المعيشة بمقتضى طبعها فتأكلها
باشتهاء ، وما أكلك الإنسان كذلك يسيغه ويهضمه بسهولة ويتغذى به غذاء
صالحا ، وما يستخبثه وبغافه لا يسهل عليه هضمه ويضره غالبا ، فما حرمه الله
فى الآية السابقة خيث بشهادة الله الموافقة لمنظرة المعتدلة ، وأصحاب الفطر السليمة
يعافون أكل الميتة حتف أنفها ، وما مائلها من فرائس السباع والمترديات والنطائح والدم
المسفوح ، وكذلك الخنزير يعافه من يعرف ضرره وانهما كه فى أكل القاذورات .
والخلاصة — أحل لكم أيها المكلفون ما يستطاب أكله ويشتهى دون
ما يخبث أو يعاف ، وأحل لكم صيد الجوارح بشرط أن يكون الجارح الذى صاده
مما أدبه الناس وعلومه الصيد حتى يصح أن ينسب الصيد إليهم ويكون قتل الجارح
له كتنذكية مرسله إياه .

أما الطيبات فهى ما عدا المنصوص على تحريمه كهيئة الأنعام وصيد البر
والبحر أى ما من شأنه أن يصاد منهما ، فالبحر كل حيوانه يصاد ، والبر يصاد منه
ما يؤكل ماعدا سباع الوحش والطيور ، لحديث ابن عباس « نهى رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير) وحديث
ثعلبة الخشنى « كل ذى ناب من السباع فأكله حرام » رواها أحمد ومسلم
وأصحاب السنن .

(فكلوا مما أمسكن عليكم) أى فكلوا من الصيد ما تمسكه الجوارح عليكم ،

أى تصيده لأجلكم فتحبسه وتقفه عليكم بعدم أكلها منه ؛ فإن أكلت منه فلا يحل أكل ما فضل عنها عند الجمهور ، لأنه مثل فريسة السبع المحرمة فى الآية السالفة .

(واذكروا اسم الله عليه) أى سموا عليه عند إرساله كما روى ذلك عن ابن عباس ، لحديث عدى بن حاتم « إذا أرسلت كلبك وسميت فأخذ فقتل فكل » والتسمية واجبة عند أبى حنيفة ، ومستحبة عند الشافعى .

(واتقوا الله إن الله سريع الحساب) أى اتقوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، ولا تقدموا على مخالفته فتأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة ، أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على نفسها ، أو تطعموا ما لم يسم الله عليه من الصيد والذبائح مما صاده أهل الأوثان فإن الله قد حرم ذلك عليكم فاجتنبوه واعلموا أن الله لا يضيع شيئا من أعمالكم ، بل تحاسبون عليها وتجازون فى الدنيا والآخرة وهو يحاسب الناس كلهم يوم القيامة فى وقت واحد ، فما أجدر حسابه أن يكون سريعا .

و بعد أن بين وجوب التذكية للذبائح لإبعاد المسلمين مما كان عليه المشركون من أكل الميتة ، وشدد فى التسمية على الطعام من صيد وذبيحة لإبعادهم عما كانوا عليه من الذبح لغير الله بالإهلال به لأصنامهم ليظهرهم من كل ما كانوا عليه من أدران الشرك .

بين حكم مؤاكلة أهل الكتاب ومناحتهم ، لأنهم لما كانوا فى الأصل أهل توحيد ثم سرت إليهم نزغات الشرك من دخل فى دينهم من المشركين كان هذا مظنة التشديد فى مؤاكلتهم ومناحتهم ، كما شدد فى أكل ذبائح مشركى العرب ونكاح نسائهم ، فذكر أنا لانعاملهم معاملة المشركين فى ذلك بل تحل لنا مؤاكلتهم ونكاح نسائهم فقال :

(اليوم أحل لكم الطيبات) أى اليوم أحلت لكم الطيبات على سبيل التفصيل بعد أن كانت حلالا بالإجمال وصار حكمها مستقرا ثابتا .

(و طعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) الطعام هنا الذبائح لأن غيرها حلال بأصله ، والذين أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى أى وذبائح أهل الكتاب ممن أوتوا التوراة والإنجيل ودانوا بهما أو بأحدهما حلال لكم دون ذبائح أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من عبدة الأصنام والأوثان .

وروى ابن جرير عن أبى الدرداء وابن زيد أنهما سئلا عما ذبحوه للكنائس فأفتيا بأكله ، قال ابن زيد أحل الله طعامهم ولم يستثن منه شيئاً ، وقال أبو الدرداء - وقد سئل عن كبش ذبح لكنيسة يقال لها جرجيس أهدها أنا كل منه ؟ اللهم عفوا إنما هم أهل كتاب طعامهم حل لنا وطعامنا حل لهم ، وأمره بأكله .
(و طعامكم حل لهم) أى وذبائحكم أيها المؤمنون حل لأهل الكتاب ، فلا جناح عليكم أن تطعموهم من طعامكم أو تبيعوهم منه .

وفائدة ذكر ذلك بيان أن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين ، وليس كذلك إباحة المناخة ، فذكره للتمييز بين النوعين .

(والحصنات من المؤمنات والحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتينموهن أجورهن) .

الحصنات هنا الحرائر أى وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح الحرائر من المؤمنات ونكاح الحرائر من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهم اليهود والنصارى إذا أعطيت من نكحتهم من محصناتكم ومحصناتهم مهورهن .

وتقييد الحل بإتيان المهور لتأكيد الوجوب لا لاشتراطه فى الحل ، وتخصيص الحرائر بالذكر للحث على ما هو الأولى منهن لا لأن من عداهن لا يحل ، إذ نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح الإماء الكتابيات عند أبى حنيفة .

(محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) المحصنون : الأعفاء عن الزنا ، والمسافحون الذين يأتون الفاحشة مجاهرين بها ، والمتخذى الأخدان : الذين يأتونها سرا

بالاختصاص بخذن من الأخدان ؛ والخذن يطلق على صاحب والصاحبة أى هن حل لكم إذا آتيتموهن أجورهن فعلا والتزمت به حال كونكم أعفَاء عن الزنا جها وسرا، إذ المقصد من الزواج أن يكون الرجل محصنا والمرأة محصنة يعف كل منهما الآخر ويجعله فى حصن يمنعه من الفاحشة على أى وجه كانت ، فلا يزنى الرجل جهرة ولا سرا باتخاذ صاحبة خاصة به ولا تكون المرأة كذلك .

(ومن يكفر بالآيتين فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) أى ومن ينكر شرائع الإسلام التى من جملتها ما بين هنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمه ويمتنع عن قبولها فقد حبط عمله الصالح الذى عمله قبل ذلك وبطل ثوابه وخسر فى الآخرة ما أعدده الله للمؤمنين من الجزاء العظيم على الإيمان الصحيح وهو إيمان الإذعان والعمل .

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن ناسا من المسلمين قالوا كيف نتزوج نساءهم يعنى نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا ؟ فأنزل الله عز ذكره ومن يكفر بالإيمان الخ . فأحل الله تزويجهن على عيم اه .

والمغزى من الآية تعظيم شأن ما أحله الله وما حرمه والتعظيم على من خاف ذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) .

المعنى الجملى

اعلم أن بين العبد وربّه عهدين عهد الربوبية والإحسان ، وعهد العبودية والطاعة ، وبعد أن وفى له سبحانه بالعهد الأول وبين له ما يحل وما يحرم من لذات الحياة فى الطعام والنكاح وطلب إليهم الوفاء بالعهد الثانى وهو عهد الطاعة ، وأعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، والصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة ، لاجرم بدأ الله بذكر فرائض الوضوء .

وبعد أن بين لنا طائفة من الأحكام المتعلقة بالعادات والعبادات ذكرنا بعهد وميثاقه علينا وما التزمناه من السمع والطاعة له ولرسوله بقبول دينه الحق لنقوم به مخلصين .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ) أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة على حد قوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى إذا أردت قراءته ، وجهور لمسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام للصلاة إلا إذا كان محدثاً .

أى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين فاغسلوا الخ . وهذا التقييد مستفاد من السنة العملية فى الصدر الأول ، فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث بُرَيْدَةَ قَالَ : « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خَفِيهِ . وَصَلَّى الصُّلُوتَ بِوَضُوءٍ وَاحِدٍ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ فَقَالَ : (عَمْدًا فَعَلْتَهُ يَا عُمَرُ) » وروى البخارى وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس بن مالك يقول : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ

عند كل صلاة ، فال قلت : فأنتم كيف تصنعون ؟ قال كنا نصلّي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث ، وروى أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » فهذه الأخبار تدل على أن المسلمين لم يكونوا في عهد النبي يتوضئون لكل صلاة وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة غالباً ، وصلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد أمام الناس لبيان جواز ذلك . ومن ذلك يعلم أن الوضوء لكل صلاة عزيمة وهو الأفضل ، وإنما يجب على من أحدث . وآخر الآية يدل على ذلك فإنه ذكر الحدين ووجوب التيمم على من لم يجد الماء بعدهما فعم منه أن من وجده وجب عليه أن يتطهر به عقبهما ، ولو كانت الطهارة واجبة لكل صلاة لما كان لهذا معنى .

والخلاصة — أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث وإنما يستحب تجديده لكل صلاة .

(فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق) الغسل (بالفتح) إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ ونحوه ، والوجوه واحدها وجه ، وحده من أعلى تسطيح الجهة إلى أسفل اللحيين طولاً ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً ، والأيدي واحدها يد وحدها في الوضوء من رءوس الأصابع إلى المرفق وهو أعلى الذراع وأسفل العضد .

روى مسلم من حديث أبي هريرة : أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع في العضد ، ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ .

(وامسحوا برءوسكم) الرأس معروف ويمسح ما عدا الوجه منه . وقد اختلف فقهاء الأمصار في أقل ما يحصل به فرض مسح الرأس ، فقال الشافعي يكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح ولو شعرة ، وقال مالك يجب مسح الكل أخذاً بالاحتياط ،

وأوجب أبو حنيفة مسح الربع لأن المسح إنما يكون باليد وهى تستوعب مقدار الربع فى الغالب . ولما روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على ناصيته » (وهى مقدار الربع) .

(وأرجلكم إلى الكعبين) الكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين ، أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ويؤيده عمل النبي صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة فقد روى مسلم عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً لم يغسل عقبه فقال : « ويل للأعقاب من النار » وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال : تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفرة فأدركنا وقد أرهقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا قال فتنادى بأعلى صوته « ويل للأعقاب من النار » مرتين أو ثلاثاً .

ويقوم المسح على الخفين عند لبسهما مقام غسل الأرجل ، وقد روى ذلك خلائق لا يحصون من الصحابة ، قال الحسن : حدثنى سبعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يمسح على الخفين » وقال الحافظ بن حجر : قد صرح جمع من الحفاظ بأن لمسح على الخفين متواتر وأقوى الأحاديث حجة فيه حديث جرير ، فقد روى أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فتبيل له تفعل هكذا ؟ قال نعم . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ثم توضأ ومسح على خفيه .

والمخلاصة — أن غسل الرجلين المكشوفتين ومسح المستورتين هو الثابت بالسنة المتواترة المبينة للقرآن والموافق لحكمة هذه الطهارة .

(وإن كنتم جنباً فاطهروا) الجنب لفظ يستعمل للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث والمراد به المضاجعة والوقاع أى وإن كنتم أصابتكم جنابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها فتطهروا منها بغسل البدن كله قبل دخولكم فى صلاتكم التى قمت إليها .

وفي معنى الوقاع خروج المنى بالاحتلام فهو جنابة شرعا ، وفي الحديث « إنما الماء من الماء » رواه مسلم ، أى إنما يجب ماء الغسل من الماء الدافق الذى يخرج من الإنسان مهما كان سبب خروجه .

ولما بين سبحانه وجوب الطهارتين وكان المسلم لابد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك فى اليوم ولابد له من الغسل فى كل أسبوع أو أكثر مرة غالبا بين الرخصة فى تركهما عند المشقة أو العجز ، لأن الدين يسر لا حرج فيه ولا عنت فقال :

(وإن كنتم مرضى أو وإن كنتم مرضى مرضا جلديا كالجُدَرِيّ والجرب وغيرهما من القروح والجروح أو أى مرض يشق فيه استعمال الماء أو يضر .

(أو على سفر) طال أو قصر مهما كان السبب فيه ، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل .

(أو جاء أحد منكم من الغائط) الغائط المكان المنخفض من الأرض ، ويراد به شرعا قضاء الحاجة من بول وغائط أى أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها كالطواف ، ويسمى الحدث الأصغر .

(أو لا مستم النساء) المراد بالملامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء ، والحدث الموجب للغسل يسمى الحدث الأكبر .

(فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) أى إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث المرض أو السفر أو فقد الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين فاقصدوا ترابا أو مكانا من وجه الأرض طاهرا لا نجاسة عليه فاضربوا بأيديكم عليه وأصقوها بوجوهكم وأيديكم إلى الرسغين بحيث يصيبها أثر منه . (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أى ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم فى هذه الآية وفى غيرها حرجا ما ، أى أدنى ضيق وأقل مشقة لأنه تعالى غنى

عنكم رحيم بكم فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم .
 (ولكن يريد ليطهركم) من الأقدار والذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة ؛
 فتكونوا أنظف الناس أبدانا وأزكاهم نفوسا وأصحهم أجسادا وأرقاهم أرواحا .
 (وليتم نعمته عليكم) فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ،
 والإنسان إنما هو روح وجسد والصلاة تطهر الروح وتركى النفس ، فهى تنهى عن
 الفحشاء والمنكر وتعود المصلى مراقبة ربه فى السر والعلن وخشيته حين الإساءة
 والرجاء فيه لدى الإحسان ، والطهارة التى جعلها الله شرطا للدخول فى الصلاة
 ومقدمة لها تطهر البدن وتنشطه فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها ، فما أجلّ
 نعم الله على عباده ، وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه ، ومن ثم ختم الآية
 الكريمة بقوله :

(اعلمكم تشكرون) أى وليعذك بذلك لدوام شكره على تلك النعم الظاهرة والباطنة.

الحكمة فى شرع الوضوء والغسل

للوضوء والغسل فوائد أهمها :

(١) أن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطا وهمة ويزيل
 ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء بسبب الحدث أو بغيره من الأعمال التى تؤثر
 تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى .
 إذ المشاهد أنه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقاع أو الإنزال
 حصل تهيج عصبى كبير يعقبه فتور شديد على حسب سنة رد الفعل ، ولا يعيد نشاطه
 إلا غسل البدن كله .

(٢) أن النظافة ركن الصحة البدنية فإن الوسخ والأقدار مجلبة للأمراض
 والأدواء الكثيرة ، ومن ثم نرى الأطباء يشددون فى أيام الأوبئة والأمراض المعدية
 فى المبالغة فى النظافة ، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصح الناس أجسادا وأقلهم أمراضا

لأن دينهم مبنى على المبالغة فى نظافة الأبدان والثياب والأمكنة فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنفتى الأسباب التى تولد جراثيم الأمراض عند الناس .

(٣) تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيش معهم ، إذ من كان نظيف البدن والثياب كان جديرا بحضور كل مجتمع ولقاء أشراف الناس وفضلائهم ومن كان وسخا قدرا فإنه يكون محقرا عند كرام الناس ولا يعدونه أهلا لأن يحضر مجالسهم ويشعر فى نفسه بالضعة والهوان .

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل يوم الجمعة والطيب ولبس الثياب النظيفة لأنه يوم يجتمع فيه الناس فى المساجد لعبادة الله تعالى ، روى مالك والشافعى وأحمد والبخارى ومسلم من طرق عدة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » أى بالغ مكلف .

وبعد أن بين سبحانه هذه الأحكام وذكر رفع الحرج الذى تم به الإنعام ذكرنا بنعمه التى أنعم بها علينا فقال :

(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلم سمعنا وأطعنا) أى تذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفارا متباغضين فأصبحتم بهداية الدين إخوانا متحابين ، وتذكروا العهد الذى عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى المنشط والمكروه (المحبوب - والمكروه) والعسر واليسر حين قلم له سمعنا ما أمرتنا به ونهيتمنا عنه ، وأطعناك فيه فلا نعصيك فى معروف ، وكل ما جئتنا به فهو معروف .

وكل نبى بعث فى قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة وقبول الدعوة . والدخول فى الدين يعد قبولاً لهذا العهد ، فعلىنا أن نعد هذا التذكير خطابا لنا كما عده السلف من الصحابة خطابا لهم .

(واثقوا الله) فلا تنقضوا عهده وتحالفوا ما أمركم به وما نهاكم عنه سواء أكان فى هذه الآيات أم فى غيرها .

(إن الله عليم بذات الصدور) فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق من نية الوفاء به أو عدم الوفاء ، وما تنطوى عليه السرائر من الإخلاص أو الرياء .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) .

شرح المفردات

القوام بالشئ : هو القائم به حق القيام ، شهداء بالقسط أى شهداء بالعدل بلا محاباة ، ولا يجرمنكم أى ولا يحملنكم ، والشنان : العداوة والبغضاء ، الخبير : العالم بالشئ على وجه الدقة والضبط ، والجحيم : النار العظيمة ، وهى هنا دار العذاب وأصحابها هم ملازموها ، بسط إليه يده : إذا بطش به ، وبسط إليه لسانه : إذا شتمه ، والتقوى هى اتقاء عقاب الله وسخطه بترك معاصيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه عباده بالوفاء بالعقود عامة ثم امتن عليهم بإياحة كثير من الطيبات لهم وتحريم ما يضرهم من الطعام إلا فى حال الضرورة ، ثم ذكر حل طعام

أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات ، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم - ذكر هنا ما ينبغى أن يكون من معاملتهم سواء أ كانوا أعداء أم أولياء ، ثم ذكر وعده لعباده الذين يعملون الصالحات ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات ، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم ، وكانوا على وشك الإيقاع بهم ، ولكن رحمهم وكبت أعداءهم وردهم صاغرين ليكون الشكر أتم والوفاء ألزم .

الإيضاح

(يأيتها الذين آمنوا كونوا قوامين لله) أى ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ما تعملونه من أمر دينكم أو أمر دنياكم ، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق بدون اعتداء على أحد ، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

(شهداء بالقسط) الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أى إظهاره هوله بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه ، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة فالعدل هو ميزان الحقوق ، إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس وانتشرت المفاصد وتقطعت روابط المجتمع ، فلا يلبث أن يسلب الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال ، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغايرها ، ولكن الناس لا يعتبرون .

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) أى ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب حق أو الحكم لهم بذلك ، فال مؤمن يؤثر العدل على الجور والمحابة ويمجمله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما .

(اعدلوا هو أقرب للتقوى) هذه الجملة تؤكد للجملة السالفة للعناية بأمر العدل وأنه فريضة لا هواة فيها لأنه أقرب لتقوى الله والبعد عن سخطه ، وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاسد التى تقوض نظم المجتمعات وتقطع الروابط بين الأفراد وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

(واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) أى واتقوا سخطه وعقابه لأنه لا يخفى عليه شئ من أعمالكم ظاهرها وباطنها ، واحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم للعدل وقد مضت سنته فى خلقه بأن يجعل جزاء ترك العدل فى الدنيا الذلة والمهانة للأمر والأفراد وفى الآخرة الخزي يوم الحساب .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الأعمال التى يصلح بها أمر العباد فى أنفسهم وفى روابطهم الاجتماعية ، ومن أهمها العدل فيما بينهم وتقوى الله فى جميع أحوالهم .

ثم بين سبحانه ما وعدهم به بعد أن ذكره أولا مجالا لتتوجه النفس للسؤال عنه حتى إذا جاء تأكد فى النفس وتقرر هذا الوعد فقال :

(لهم مغفرة وأجر عظيم) المغفرة الستر ، والإيمان والعمل الصالح يستران ويمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة فيغلب عليها حب الحق والخير وتكون أهلا للوصول إلى عالم القدس والطهر ، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح فضلا من الله ورحمة من لده .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) الكفر هنا هو الكفر بالله ورسله ، لا فارق فى ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض .

وآيات الله قسما آياته المنزلة على رسله وآياته التى أقامها فى الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكلمه وقدرته وإرادته ، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه ، والجحيم النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم « قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا

فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ « أَى أَن هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ الْمَكْذِبِينَ سَيَصْلَوْنَ الْعَذَابَ فِي نَارٍ عَظِيمَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَن كَفَرَ وَكَذَبَ بِآيَاتِهِ لِأَن نَفُوسَهُمْ قَدْ فَسَدَتْ ، وَسُوءَ أَعْمَالِهِمْ قَدْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا صُمًا عَمِيًّا لَا يَبْصُرُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » .

روى من طرق عدة أن الآية نزلت في رجل من قبيلة محارب هم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم أرسله قومه لذلك وكان بيده سيف وليس مع النبي صلى الله عليه وسلم سلاح وكان منفردا . روى الحاكم من حديث جابر قال : قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك ؟ قال الله ، فوقع السيف من يده فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك ؟ قال كن خير آخذ ، قال تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس .

وفي رواية أخرى « أن السيف الذى كان بيد الأعرابي كان سيف النبي صلى الله عليه وسلم علقه في شجرة وقت الراحة فأخذه الرجل وجعل يهزه ويهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سقط من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك منى ؟ قال لا أحد ، ثم صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فأخبرهم وأبى أن يعاقبه » .

وعلى هذا فالمراد تكبيرهم بنعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ، فإنه لو حصل ذلك لكان من الحزن الكبرى التى تصيب المسلمين .

وقيل إن المراد تكبيرهم بما أنعم الله عليهم من قوة الإسلام وعظمة شوكة المسلمين فبعد أن كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم بدل الله الحال غير الحال وأصبحوا أعزة بعد الذلة وغالبين بعد أن كانوا مهزومين فهو سبحانه يذكر المسلمين بوقائع الاعتداء كلها

سواء في ذلك حادثة المحاربى أو أمثالها لأن حفظه لأولئك السلف هو حفظه لذلك الدين القويم ، فالنبى صلى الله عليه وسلم قد باع الرسالة وأدى الأمانة ، وأصحابه هم الذين تأقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولاً وعملاً .

ومن فوائد هذا التذكير للمتأخر ترغيبه فى التأسى بالسلف فى القيام بما جاء به الدين من الحق والعدل والبر .

ومعنى قوله : إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم ، أى شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء من قتل ونهب فكف الله تعالى بلفظه ورحمته أيديهم عنكم فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به .

(واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى واتقوا الله الذى أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم ، وتوكلوا عليه وحده فقد أراكم عنايته بمن يكون أموره إلى بعد مراعاة شأنه والسير عاينها فى اتقاء كل ما يخشى ضره وتسوء عاقبته ، لا على أوليائكم وحلفائكم ، لأن الأولياء قد تنقطع بهم الأسباب ويحييون داعى البأس إذا اشتد البأس ، والحلفاء قد يغدرون كما غدر بنو النضير وغيرهم ، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه وهو الذى بيده ملكوت كل شئ وهو الذى يحير ولا يحار عاينه فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه كما حدث لأولئك السكك المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم وقتهم وفقهم وتآلب الناس كلهم عليهم .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ قُرْصَانًا حَسَنًا لَّا كَفْرَنَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا ادْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ

فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) .

شرح المفردات

نقيب القوم : من ينقب عن أحوالهم ويبحث عن شؤونهم ، ونقب عليهم نقابة صار نقيبا عليهم ، والتعزير : النصرة مع التعظيم ، وأقرضتم الله أى بذلتم المال فوق ما أوجبه عليكم ، والقرض الحسن : ما كان عن طيب نفس ، سواء السبيل : وسطه ، لعناهم : طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، وفاسية : يابسة غليظة تنبو من قبول الحق ، والتحريف : إمالة الشيء عن موضعه إلى أى جانب من الجوانب ، والخائنة : الخيانة ، الإغراء : أصله التحريش ، يقال أغرى الشيء بالشيء والمراد هنا تفرق الأهواء الموجب للعداوة والبغضاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكرنا الله بميثاقه الذى واثقنا به على السمع والطاعة لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم - بين لنا فى هذه الآيات أخذ الميثاق على اليهود والنصارى وما كان من نقضهم له ومن عقابه لهم على ذلك فى الدنيا بضروب الذلة والمسكنة وفى الآخرة الخزى والعذاب لنعتهر بحالهم ونبتعد أن نكون على مثالهم وليشرح لنا العلة فى كفرهم

بالنبي صلى الله عليه وسلم وسبب تصديهم لإيذائه وعداوة أمته وليقيم الحجة عليهم بما تراه من ذكر الحاجة وبيان أنواع كفرهم وضلالهم .

الإيضاح

(ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل) أى ولقد أخذ الله العهود والمواثيق على بنى إسرائيل ليعملن بما فى التوراة وفيها شريعتهم التى اختارها لهم ، ولا يزال هذا الميثاق فى آخر الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام .

(وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) نقيب بنى إسرائيل زعماء أسباطهم الاثني عشر وبعثنا أى أرسلنا لمقاتلة الجبارين الذين سيأتى ذكرهم بعد .

روى أنه لما نجا بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالسير إلى بيت المقدس وكان يسكنها الكنعانيون الجابرة وقال لهم إني جعلتها لكم وطنا ودار هجرة فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإني ناصركم ، وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا بالوفاء بتنفيذ ما أمروا به فاختر النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل وتكفل له به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من الأرض المقدسة بعث النقباء يتحسسون الأخبار فرأوا أجساما قوية وشوكة وقوة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد كاف موسى نههم عن ذلك فنكثوا الميثاق إلا نقيبين وهما اللذان قال فيهما (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ) الآية ، وسيأتى الكلام فى ذلك بعد .

(وقال الله إني معكم) أى وقال الله هذا لموسى وهو بلغه عنه ، ومعنى كونه معهم أنه ناصرهم ومعينهم ماداموا محافظين على الميثاق ، وهو راء لأفعالهم ، سميع لأقوالهم عليهم بضمائرهم ، وقادر على مجازاتهم .

(لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزتموه وأقرضتم الله قرضا حسنا لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) أى لئن

أديتم الصلاة على وجهها ، وأعطيتم ما فرض عليكم من الصدقات التي تتركى بها نفوسكم ، وآمنتم برسلى الذين أرسلهم إليكم بعد موسى كداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد ونصرتهم معظمين لهم ، وبذلتهم من المال زيادة على ما أوجبه الله عليكم بالزكاة فكنتم بذلك بمثابة من أقرض ماله لغنى ملىء وفى لا يضيع عليه ، بل يحجده أمامه عند شدة الحاجة إليه - لئن فعلتم كل هذا لأزينا بتلك الحسنات تأثير سيئاتكم التي سلفت منكم من نفوسكم فلا يبقى فيها رجس ولا خبث يقتضى العقاب ، فإن الحسنات يذهبن السيئات كما يغسل الماء الأدران والأوساخ ، ولأدخنكم تلك الجنات التي لا يدخلها إلا من كان طاهرا من الشرك وما يتبعه من المعاصى والآثام التي تقسد الفطرة .

(فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) أى فمن جحد منكم شيئا مما أمرته به فتركه أو عمل شيئا مما نهيته عنه بعد أخذ الميثاق عليه بالوفاء لى بطاعتي واجتنابه معصيتى فقد أخطأ الطريق الواضح وضل الصراط المستقيم الذى يوصل سالكه إلى إصلاح قلبه وتركىة نفسه ويجعله أهلا لجوار ربه فى تلك الجنات .

(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) أى فبسبب نقضهم للميثاق الذى أخذ عليهم - ومن ذلك الإيمان بمن يرسلون من الرسل ونصرهم وتبجيلهم وتعظيمهم - استحقوا مقتنا وغضبنا والبعد من الطافنا فإن نقض الميثاق أفسد فطرتهم ودنس نفوسهم وقسى قلوبهم حتى قتلوا الأنبياء بغير حق وافتروا على مريم وأهانوا ولدها الذى أرسل إليهم وإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم ، وحاولوا قتله وافتخروا بذلك - فبكل هذا بعدوا عن رحمة الله إذ جرت سنته أن الأعمال السيئة تؤثر فى النفوس آثارا سيئة فتجعل القلوب قاسية لا تؤثر فيها الحجة والموعظة ، ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه والبعد من فضله ورحمته ، وما مثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه ولا يراعى القوانين الصحية فهو لا شك سيصاب بالأمراض والأسقام ولا يلومن فى هذه الحال إلا نفسه إذ كان هو السبب فى ذلك بإهماله .

(يحرّفون الكلم عن مواضعه) تحريف الكلم عن مواضعه يكون : إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان ، وإما بتحريف المعانى بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له ، وكل منهما قد وقع فى التوراة وغيرها من كتبهم ، فإن التوراة التى كتبها موسى وأخذ العهد والميثاق على بنى إسرائيل بحفظها كما نص على ذلك فى الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع ، قد فقدت باتفاق مؤرخى اليهود والنصارى عند سبى البابليين لليهود ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ولم يكونوا يستظهرونها كما كان المسلمون يستظهرون القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . وهناك أسفار خمسة ينسبونها إلى موسى - فيها خبر كتابته التوراة وأخذه للعهد عليهم بحفظها ، ولا شك أن هذا ليس منها قطعاً ، وفيها خبر موته وأنه لم يقم بعده أحد مثله إلى ذلك الوقت أى الوقت الذى كتب فيه سفر تثنية الاشتراع ، وفى هذا أكبر دليل على أن الكاتب كان بعد موسى برح من الزمن طویل كما أن فيها كثيراً من الكلمات البابلية الدالة على أنها كتبت بعد السبى .

نكل هذا حقق كثير من مؤرخى الفرنجة أن هذه التوراة التى بين أيديهم كتبت بعد موسى ببضعة قرون كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبنى إسرائيل بالعودة إلى بلادهم .

(ونسوا حظاً مذكروا به) روى عن ابن عباس أنه قال : نسوا الكتاب ؛ وعن مجاهد أنه قال : نسوا كتاب الله إذ أنزل عليهم ، ومرادها أنهم نسوا طائفة من أصل الكتاب ، وقال بعضهم : نسوا الكتاب بترك العمل به . وفى الحق أنهم أضاعوا كتبهم وفقدوه عند ما أحرق البابليون هيكلكم وخرّبوا عاصمتهم وسبوا من بقى منهم حياً ، فلما عادت إليهم الحرية جمعوا ما كانوا قد حفظوه من التوراة ووعوه وعملوا به .

وهذا الخبر من أعظم الأدلة على أن القرآن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم أثبتتها التاريخ بعد بعثة النبى بعدة قرون من موت موسى .

(ولا تزال تطع على خائنة منهم) الخائنة بمعنى الخيانة كالفائلة بمعنى القيلولة والخاطئة بمعنى الخطيئة .

أى إنك أيها النبي لا تزال نطلع من هؤلاء اليهود على خيانة إثر خيانة فلا تظن أنك أمنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم فهم قوم لا وفاء لهم ولا أمان ، فمن نقض عهد الله وميثاقه ، كيف يرجى منه وفاء ؟ وكيف يطمع منه فى أمانة ؟ (إلا قليلا منهم) كعبد الله بن سلام وإخوانه ممن أسلموا وصدقوا الله ورسوله فلا تظن بهم سوءا ولا تخف منهم خيانة ولا خداعا .

(فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) أى فاعف عما فرط من هؤلاء القليل واصفح عن أساء منهم وعاملهم بالإحسان الذى يحبه الله تعالى فأنت أحق الناس باتباع ما يحبه الله ويرضاه ، وهذا رأى أبى مسلم ، وقال غيره : فاعف عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن ييسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل واصفح لهم عن جرمهم فإننى أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه إشارا للإحسان . والفضل على ما يقتضيه العدل .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رغب عند ما دخل المدينة فى مصالحة اليهود وموادعتهم فعدد معهم العهد على ألا يحاربوه ولا يظاهروا من يحاربه ولا يمالئوا عليه عدو له ، وأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وحريتهم ، وكان إذ ذاك منهم ثلاث طوائف حول المدينة وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة فنقضوا العهد وهموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فخل له قتالهم ولكنه رجع السلم على الحرب واكتفى بطردهم من جواره وبعث إليهم « أن اخرجوا من المدينة ولا تأسا كنونى وقد أجلتكم عشرا فمن وجدته بها بعد ذلك ضربت عنقه » فأقاموا يتجهزون أياما ثم ثبط عزيمتهم عبد الله بن أبى وأرسل إليهم ألا تخافوا إن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم وتنصركم قريظة وحلفاءكم من غطفان وكان رئيسهم

المطاع حي بن أخطب شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو الذى رين له قتله والغدر به فركن إلى قول ابن أبى وبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنا لن نخرج من المدينة فافعل ما بدا لك .

فعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يريدون الحرب فخرج هو والمسلمون للقائهم يحمل لواءه على بن أبى طالب كرم الله وجهه فلما وصلوا إليهم أقاموا على حصونهم يرمونهم بالنبل والحجارة ، ولما اشتد عليهم الحصار ورأوا ألا سبيل لهم إلا المقاومة رضوا بالخروج سالمين وعلموا أن وعد ابن أبى كان هو الغدر والخيانة بعينها وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قادرا حينئذ على استئصالهم والقضاء عليهم ولكنه اختار العفو والإحسان واكتفى بإبعادهم عن المدينة على أن يخرجوا منها وليس معهم إلا أولادهم وما حملت إلا السلاح ، ورحلوا إلى خيبر .

وهذه الآية نزلت بعد هذا كله لأنها من آخر ما نزل ولم يعاقب اليهود بعدها على خيانة ولا غدر ولكنه أوصى بإجلائهم عن جزيرة العرب .

(ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به) أى وكذلك أخذنا من النصارى الثبات على طاعتى وأداء فرائضى واتباع رسلى والتصديق بهم ، فسلكوا فى ميثاقى الذى أخذته عليهم طريق اليهود الضالين ، فبدلوا دينهم ونقضوا الميثاق الذى أخذته عليهم بالوفاء بعهدى وضيعوا أمرى .

(فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) فكان نسيان خطر عظيم من كتابهم سببا لتفرقهم فى الدين واتباع أهوائهم ، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء بمقتضى سننه تعالى فى هذه الحياة ومن أجل هذا نسبته سبحانه إلى نفسه مع أنه من أعمالهم الاختيارية لأنه كان نتيجة حتمية لتلك السنن التى وضعت فى الخليقة .

(وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) أى وسينبئهم الله عند الحساب فى الآخرة بما كانوا صنعوا فى الدنيا من نقض الميثاق ونكث للعهد وتبديل للكتاب

وتحريف للأوامر والنواهي ويجازيهم على ذلك على حسن استحقاقهم فيعلمون أنه حكم عدل لا يظلم مثقال ذرة .

بين الله في هذه الآية أن النصارى نسوا حظا مما ذكروا به كاليهود ، وسر هذا أن المسيح عليه السلام لم يكتب ما ذكرهم به من المواعظ وتوحيد الله وتنزيهه وطرق الإرشاد إلى عبادته وكان الذين اتبعوه من العامة وأمشتهم حواريه وهم من الصيادين ، وقد اشتد اليهود في مطاردتهم في كل مكان ، ومن ثم لم تكن لهم جماعات ذات نفوذ وقوة وعلم تدون ما حفظوه من الإنجيل .

إلى أن كثيرا من الناس كانوا يثبون تعاليم باطلة عن المسيح ومنهم من كتب مثل هذا حتى إن الكتب التي سموها الأنجيل كانت كثيرة جدا ، ولم تظهر الأنجيل الأربعة التي عليها المعول عندهم الآن إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح عند ما صار للنصارى دولة بدخول الملك قسطنطين في النصرانية وإدخاله إياها في طور جديد من الوثنية وهي تاريخ ناقص للمسيح على ما بها من تعارض وتناقض مع كونها مجهولة الأصل والتاريخ وقد أقاموا بناء دينهم وكتبهم التي يسمونها (العهد الجديد) على أساس كتب اليهود التي يسمونها كتب (العهد العتيق) وقد علمت شأنها فيما سلف .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أخذ الميثاق على اليهود والنصارى كما أخذه على هذه الأمة وأنهم نقضوا العهد والميثاق وتركوا ما أمروا به ، وأنهم أضاعوا حظا عظيما مما أوحاه إليهم ولم يقيموا ما حفظوا منه - دعاهم عقب ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذى جاء به .

الإيضاح

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) قال ابن عباس أخفوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأخفوا أمر الرجم ، وعفا عن كثير مما أخفوه فلم يفضحهم ببيانه .

أى إنا قد أرسنا إليكم محمدا رسول الله وخاتم النبيين يبين لكم كثيرا من الأحكام التى كنتم تخفونها وقد أنزلها الله عليكم حكمكم رجم الزانى وهو مما حفظتموه من أحكام التوراة كما هو ثابت فى سفر التثنية ، لكنكم لم تلتزموا العمل به وأنكره عالمكم ابن سوريا أمام النبي صلى الله عليه وسلم فأقسم عليه وناشده الله فاعترف به ، وكذلك أخفى اليهود والنصارى صفات النبي صلى الله عليه وسلم والبشارات به وحرفوها بالحل على معان أخرى إلى ما أضاعوه من كتبهم ونسوه كنسيان اليهود ما جاء فى التوراة من أخبار الحساب والجزاء فى الآخرة وأظهره الرسول لهم وكانت الحجة عليهم فيه أقوى إذ هم يعلمون أنه نبي أمى لم يطلع على شيء من كتبهم ومن ثم آمن به من آمن من علمائهم المنصفين واعترفوا بعد إيمانهم بما بقى عندهم من البشارات وصفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا البيان من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزات القرآن التى لا ينبغى أن يمتري أحد فيها ومع هذا فقد كان يعفو عن كثير مما كانوا يخفونه ولا يظهر الكثير مما يكتُمونه ، وإنما لم يظهره لأنه

لا حاجة إلى إظهاره في الدين ، والفائدة في ذكر بعضه إعلامهم بأن الرسول عالم بكل ما يخفونه فيكون ذلك داعياً لترك الإخفاء حتى لا يفتضحوا .

ومن شأن علماء سوء في كل أمة أن يكتنموا من العلم ما يكون حجة عليهم وكاشفاً عن سوء حالهم أو يحرفوه بحمله على غير ظاهر معناه .

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) النور هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمى بذلك لأنه للبصيرة كالنور للبصر ، فكما أنه لولا النور ما أدرك البصر شيئاً من المبصرات كذلك لولا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والإسلام لما أدرك ذو البصيرة من أهل الكتاب ولا من غيرهم حقيقة الدين الحق ولا ما طرأ على التوراة والإنجيل من ضياع بعضهما أو نسيانه ، وعبث الرؤساء ببعض الآخر بإخفاء شيء منه أو تحريفه وظلوا في ظلمات الجهل والكفر لا يبصرون .

والكتاب المبين هو القرآن الكريم وهو بين في نفسه مبين لما يحتاج إليه الناس لهدايتهم .

(يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) من اتبع رضوان الله أي من كان همه من الدين ابتغاء رضوان الله لا تقرير ما ألفه ونشأ عليه وأخذ من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال ، والسلام بمعنى السلامة أي طرق السلامة من كل مخافة ، وقوله من الظلمات إلى النور أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وقوله بإذنه أي بإرادته أو بتوفيقه بالجرى على سننه تعالى في تأثير الأعمال الصالحة والعقائد الصحيحة في النفوس وإصلاحها إياها ، وقوله إلى صراط مستقيم أي إلى الدين الحق لأنه واحد ومتفق من جميع جهاته ؛ أما الباطل فتعدد الطرق وكلها معوجة ملتوية ، وقد ذكر سبحانه للكتاب ثلاث فوائد :

(١) أن المتبع لم يرض الله بالإيمان بهذا الكتاب يهديه إلى الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يبعده عن الشقاء والهلاك فيقوم في الدنيا بحقوق الله

والحقوق الواجبة عليه لنفسه (روحية كانت أو جسدية) وللناس ويكون في الآخرة
منعما نعيمًا روحيا وجسديا .

وخلاصة ذلك :

(١) إنه يتبع ديننا نجد فيه ما يوصله إلى السلامة من الشقاء في الدنيا والآخرة
لأنه دين الإخلاص والعدل والمساواة .

(٢) إنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات التي أفسد بها
الرؤساء جميع الأديان إلى نور التوحيد الخالص الذي يجعل صاحبه حرا كريما بين
يدى الخلق خاضعا للخالق وحده .

(٣) إنه يهdy إلى الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين بأقرب الوسائل .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ
قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ،
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ
مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على أهل الكتاب عامة بين ما كفر به النصارى خاصة .

الإيضاح

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) المسيحيون في هذا العصر فرق ثلاث: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت (أى إصلاح النصرانية) وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون وصار هو المذهب السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا ؛ وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله واستبدل بها تقاليد أخرى ، ومع كل هذا فهؤلاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء ، فلا يزالون يقولون بألوهية المسيح وباتشيث ويعبدون الموحّد غير مسيحي كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان .

وجميع فرق النصارى في هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح بن مريم وإن المسيح بن مريم هو الله ، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة إذ كان بعضهم يفسر الأب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة والقول بها لا ينافي توحيد الخالق ، كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربة وغيرهم من الموحدين الذين يعتقدون أن المسيح نبى ورسول لا إله .

قال الدكتور بوست البروتستانتي في تاريخ الكتاب المقدس (طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر : الله الآب ، الله الابن ، والله الروح القدس ، فأبى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن القدى وإلى الروح القدس التطهير) غير أن هذه الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء ، والعمدة عندهم في هذه العقيدة عبارة جاءت في إنجيل يوحنا وهي (في البدء كانت الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله هو الكلمة) وقد فسروا الكلمة بالمسيح فيصير معنى الفقرة الثالثة من إنجيل يوحنا (والله هو المسيح بن مريم) وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم .

ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنى الشرق والغرب .

(قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا) أى قل أيها النبي الكريم لهؤلاء النصارى : من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه بل عن سائر الخلق جميعا إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم . وخلاصة هذا — إن المسيح وأمه من المخلوقات اقبالة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعا لا يستطيع أحد أن يرد إرادته ، لأنه هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ما كوت كل شىء .

(والله ملك السموات والأرض وما بينهما) أى فمن يملك من الله شيئا إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة وهو صاحب الملك المطلق والتصرف فى السموات والأرض وما بينهما أى ما بين العالمين بالنسبة إليكم .

(يخلق ما يشاء) أى إن تلك الشبهة التى عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشرو إله — هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالا عجيبه لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ولا على ألوهية بعضها ولا حلول الإله الخالق فيها ، وكذلك سنة الله فى خلق المسيح ومزايه لا تدل على كونه إلها وربا لأن هذه المزايا فى الخلق كلها بمشيئة الخالق ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقا .

(والله على كل شيء قدير) أى إنه تعالى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم كما فى آدم ، وأخرى من أم ولا أب له كما فى عيسى عليه السلام إذ كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته وإنما يعدّ بعضه غريبا بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبيّ يجهله غيرهم أو عن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

روى ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي فى الدلائل عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى وبجرى بن عمرو وشانس بن عدى فكلّمهم وكلّموه ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما نخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحبّاءه كما قالت النصارى ذلك فأنزل الله فيهم :

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبّاءه) إلى آخر الآية ، وقد جاء إطلاق هذا اللفظ فى الإنجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين كما حكاه متى فى وعظ المسيح على الجبل من قوله : (طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون) وكقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية (لأن كل الذين يتقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله) ومن هذا يعلم أن (ابن الله) يستعمل فى كتبهم بمعنى حبيب الله الذى يعامله معاملة الأب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم ، ولكن النصارى تحكموا فى هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقى للمسيح وبالمعنى المجازى بالنسبة إلى غيره من الصالحين .

وقد رد الله عليهم بقوله لنبيه :

(قل فم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى قل لهم أيها النبى إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا كما ترون من تخريب الوثنيين لمسجدكم الأكبر ولبلدكم المرة بعد المرة ومن إزالة مسكنكم من الأرض ، والأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه فلستم إذا

أبناء الله ولا أحبائهم ، بل أنتم بشر من جملة ما خلق ، والله سبحانه لا يحب أن يحب أحدًا ، وإنما يغفر لمن يعي أنه مستحق للمغفرة ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب ، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم ، فكل هذا لا يجزيكم فتيلًا ولا قطميرًا وإنما الذي ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال ، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب .

(والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير) أى إنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق فى كل شىء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله ، وجميع مخلوقاته عبيد له لا أبناء ولا بنات « إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » وفى ختمها بقوله « وإليه المصير » إشارة إلى أنه سيعذبهم فى الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة وأنهم عند ما يصيرون إليه يعلمون أنهم عبيد آتقون يجازون ، لا أبناء ولا أحبباء يحبون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميزهم عن سائر البشر ، فليس لشعب آخر أن يطلب مساواتهم وإن كان أصح منهم إيمانًا وأصلح أعمالًا ، ولا ينبغي أن يتبعوا محمدًا صلى الله عليه وسلم لأنه عربى لا إسرائيلى والفاضل لا يتبع المفضول ، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعراء ، والنصارى قد زادوا عليهم غرورًا فهم قد ادعوا أن المسيح قداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح ، والمسيح ابنه الحقيقى ويخاطبون الله تعالى بقلب الأب .

وقد جاهد النبي صلى الله عليه وسلم غرور اليهود جهادًا عظيمًا ولم يُجِدْ ذلك فيهم شيئًا فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به من أن العمل مرضاة الله وبه تنال تركية النفس وإصلاحها كما جاهد صلف النصارى وكبرهم ، وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فسادًا وظلمًا وعدوانًا بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحبائهم وأنهم ليسوا فى حاجة إلى إصلاح دينهم ولا دنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك .

والخلاصة - إن هذه الآيات تبين لنا سنة الله في البشر وأن الجزاء إنما يكون على الأعمال لا على الأسماء والألقاب .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) أى قد جاءكم رسولنا الذى بشرتم به فى كتبكم وأخبركم به أنبياءكم ، فقد جاء على لسان موسى (أنه سيقم نبيا من بنى إسماعيل إخوتكم) وعلى لسان عيسى (أنه سيجيء البارئ قنيط روح الحق الذى يعلمكم كل شيء) وفى الإنجيل الرابع إن اليهود أرسلوا كهنة ولاويين (أخبارا) فسألوا يوحنا عليه السلام : أنت المسيح ؟ قال لا . أنت إيليا ؟ قال لا . أنت النبي ؟ قال لا .

هذا الرسول هو محمد بن عبد الله النبى الأُمى يبين لكم على فترة من الرسل أى على انقطاع منهم وطول عهد بالوحى ، جميع ما أتم فى حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدتها عليكم نزغات الوثنية ، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم إفراطكم فى الأمور المادية والروحية ، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل فى ذلك ما بينه لكم مما كنتم تحفون من الكتاب لإقامة الحجة عليكم ، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئا مما جاء به .

وقد أرسل محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وقد فشا التغيير والتجريف فى الشرائع المتقدمة لتتقدم عهدها وطول زمانها فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب وصار ذلك عذرا ظاهرا فى إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا يا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ولكن كيف نعبدك فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين لإزالة هذا العذر ، وهذا معنى قوله :

(أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) أى إننا إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين

(فقد جاءكم بشير ونذير) يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية وأنها منوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يجابى أحدا .

(والله على كل شيء قدير) ومن دلائل قدرته نصر نبيه صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته في الدنيا ، وفي ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى الأحلام إلى ما يكون له من المنزلة في الدار الآخرة .

روى ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود إلى الإسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب : يا معشر يهود اتقوا الله فوالله لتعلمن أنه رسول الله ، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفتة ، فقال رافع بن حريثة ووهب بن يهوذا : إنا ما قلنا لكم هذا وما أنزل من كتاب من بعد موسى ولا أرسل الله بشيرا ولا نذيرا بعده فأنزل الله الآية .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ
فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)
يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا
عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ
وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)
قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي
فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُخِرمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ
سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على بنى إسرائيل وأثبت لهم رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما أوحاه إليه بشأنهم وشأن كتبهم وأنبيائهم من البشارات وأخبار الغيب وتحريف الكتب ونسيان حظ منها وأيد ذلك بدحض شبهاتهم وإبطال غرورهم وهم مع كل هذا لم يزدادوا إلا كفرا وعنادا - قص علينا في هذه الآيات خبرا من أخبارهم مع موسى عليه السلام وهو المنقذ لهم من الرق والعبودية واضطهاد المصريين لهم إلى الحرية والاستقلال لكنهم مع هذا كله كانوا يخالفونه ويعصون أوامره - ليعلم الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن مكابرتهم للحق خلق من أخلاقهم توارثوها من أسلافهم وتناصلت في طبائعهم فلا بدع إذا هم أعرضوا عن دعوتك وصدوا عن هديك - وفي هذا من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، إلى ما فيه من زيادة معرفة طبائع الأمم وسنن الاجتماع البشرى .

الايضاح

(وإذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يوث أحدًا من العالمين) أى واذا ذكر أيها الرسول الكريم لبنى إسرائيل وسائر من تبلغهم دعوتك حين قول موسى لقومه بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون وقومه وأخرجهم من ذلك البلد الظالم أهله : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم واشكروه على ذلك بالطاعة له ، لأن ذلك يوجب مزيدها كما قال تعالى :

« لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » وتركها يوجب المؤاخظة والعذاب الشديد كما قال تعالى « وَلَنْ كُفِّرْتُمْ إِنْ عَذَّبْنِي لَشَدِيدٌ » .

وقد بين لهم موسى أصناف هذه النعم التي منحها لهم مولاهم وحصرها في ثلاثة أشياء :

(١) وهو أرفعها قدرا وأعلاها ذكرا أنه جعل كثيرا منهم أنبياء كموسى وهرون ومن كان قبلهما ، وقد حكى ابن جرير أن السبعين الذين اختارهم موسى ليصعدوا معه الجبل حين يصعده لمناجاة ربه صاروا كلهم أنبياء ، والمعروف أن النبوة عند أهل الكتاب المراد منها الإخبار ببعض الأمور الغيبية التي تقع في المستقبل وحي أو إلهام من الله عز وجل ، وقد كان جميع أنبيائهم من بعد موسى يحكمون بما في التوراة ويعملون بها حتى المسيح عليه السلام .

(٢) أنه جعلهم ملوكا ، والمراد من الملك هنا الحرية في تدبير أمورهم وأمور أسرهم بأنفسهم ، وفي هذا من تعظيم هذه النعمة ما لا يخفى ، يؤيد هذا ما رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا « كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا » ، وما رواه أبو داود عن زيد بن أسلم « من كان له بيت وخادم فهو ملك » .

ولا شك أن من كان متمتعا بمثل هذا كان متمتعا بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية في التصرف في سياسة بيته ، والناس يقولون إلى الآن لمن كان مخدوما مع عشيرته هائلا في معيشته مالكا لمسكنه (هذا ملك - أو ملك زمانه) يريدون أنه يعيش عيشة الملوك .

(٣) أنه آتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين أى عالمى زمانه وشعوبه التي كانت مستعبدة للطغاة من الملوك ؛ فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام ، فقد فلق البحر لهم وأهلك عدوهم وأورثهم أموالهم وأنزل عليهم المن والسوى وأظل فوقهم الغمام .

و بعد أن ذكرهم موسى بهذه النعم وشرحها لهم أمرهم بمجاهدة العدو وأبان لهم أن الله ناصرهم ما نصره فقال :

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) المقدسة المطهرة من الوثنية لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد ، روى ابن عساكر عن معاذ ابن جبل أن الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات ، وبعضهم يسمى القسم الشامي من هذا القطر باسم سورية والباقي باسم فلسطين أو بلاد المقدس أو الأرض المقدسة أو أرض الميعاد ، لأن الله وعد بها ذرية إبراهيم ويدخل فيما وعد الله به إبراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب .

فقول موسى : كتب الله لكم ، يريد به ما وعد الله به إبراهيم من حق السكنى في تلك البلاد المقدسة لا أن المراد أنها تكون كلها ملكا لهم لا يزاخمون فيها أحد لأن هذا مخالف للواقع ولن يخلف الله وعده ، فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنه لا بد أن يعود لهم ذلك الملك ليس بصحيح .

ونص هذا الوعد في سفر التكوين من التوراة إنه لما مر إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب وقال : (لنسلك أعطى هذه الأرض) وجاء فيه أيضا في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقا قائلا : (لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) .

(ولا ترددوا على أديباركم فتتقلبوا خاسرين) أي لا ترجعوا عما جئتمكم به من التوحيد والعدل والهدى والرشاد إلى الوثنية والفساد في الأرض بالظلم والبغى واتباع الأهواء فإن في هذا الرجوع خسرانا لكم ، إذ تخسرون فيه هذه النعم ومنها الأرض المقدسة التي ستعطيها جزاء شكركم فتحرمون من خيراتها وبركاتها ، وقد جاء في بعض أوصافها (إنها تفيض لبنا وعسلا) وتعاقبون بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أديبارهم .

(قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون) الجبار لغة الطويل القوى المستكبر العاتي المتمرد الذي يجبر غيره

على ما يريد من قولهم نخلة جبارة أى طويلة لا ينال ثمرها بالأيدى .
 كان سكان تلك البلاد فى ذلك الحين هم بنى عناق وكانوا أولى قوة وبأس ،
 طوال القامة ضخام الأجسام ، وقد ورد فى وصفهم فى الاسرائيليات من الخرافات
 التى كان يثبتها اليهود فى المسلمين ما لا يصدق العقل ولا ينطبق على ما عرف من سنن
 الله فى خلقه كقولهم : إن العيون الاثنى عشر (الجواسيس) الذين بعثهم موسى إلى
 ما وراء الأردن ليتجسسوا ويخبروه بحال تلك الأرض ومن فيها قبل أن يدخلها
 قومه رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم فى كسائه وفى رواية أخرى أن أحدهم كان
 يجنى الفاكهة فكان كلما أصاب واحدا من هؤلاء العيون وضعه فى كفه مع الفاكهة -
 إلى نحو أولئك من روايات بعيدة عن الصدق فالمصريون هم هم ونسل الكنعانيين
 مشاهد معروف لا يمكن أن تكون أصوله على ما وصفوا .

وهذه القصة مبسطة فى السفر الرابع من أسفار التوراة فقيها : إن الجواسيس
 تجسسوا أرض كنعان كما أمروا وأنهم قطعوا فى عودتهم زرجونة فيها عنقود عنب
 واحد حملوه بعثة بين اثنين منهم مع شئ من الرمان والتين وقالوا لموسى وهو فى ملأ
 بنى إسرائيل : قد صرنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها فإذا هى بالحقبة تدر لبنا وعسلا
 وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكنين فيها أقوياء والمدن حصينة عظيمة جدا ورأينا
 ثم أيضا بنى عناق - إلى أن قال وقد رأينا ثم من الجبارة جبارة بنى عناق فصرنا
 فى عيوننا كالجراد ، وكذلك كنا فى عيونهم - وذكر فى فصل آخر تذر بنى إسرائيل
 من أمر موسى لهم بدخول تلك الأرض ، وأنهم بكوا وتمنوا لو أنهم ماتوا فى أرض
 مصر أو فى البرية وقالوا : لماذا أتى الرب إلى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيف
 وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة . أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر ؟ الخ

والخلاصة - إن موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العامرة الآلهة
 أمرهم بدخولها مع الاستعداد لقتال من يقاتلهم من أهلها ، وإنهم لما غلب عليهم من
 الضعف والذل واضطهاد المصريين لهم وظلمهم إياهم ، أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم

وقوة أهل تلك البلاد وحاولوا الرجوع إلى مصر وقالوا لموسى إنا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها ، وقولهم (فإن يخرجوا منها فإننا داخلون) تأكيد لما فهم مما قبله مشعر بأنه لا علة لامتناعهم إلا ما ذكروه .

وفى إجابتهم هذه دليل على منتهى الضعف وخور العزيمة وعلى أنهم لا يريدون أن يأخذوا شيئاً باستعمال قواهم البدنية ولا العقلية ، ولا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم ولا أن يجلبوا لها الخير ، بل يريدون أن يعيشوا بالخوارق والآيات ما داموا في هذه الحياة .

ولا شك أن أمة كهذه لا تستحق أن تتمتع بنعيم الاستقلال وتحيا حياة العز والكرامة وتكون ذات تصرف مطلق في شؤونها ، ومن ثم لم تقم لها دولة بعدُ « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما) قوله : يخافون أى يخافون الله تعالى ، وقوله : أنعم الله عليهما أى بالطاعة والتوفيق لما يرضيه حتى فى حال الخوف والذعر ، والتوراة وتبعها المفسرون قاطبة على أن الرجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يفيث ، وأنهما كانا يحثان القوم على الطاعة ودخول أرض الجبارين ثقة بوعد الله بالنصر وتأييده إياهم .

(ادخلوا عليهم الباب فإذا دختموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى ادخلوا عليهم باب المدينة ، فإذا فعلتم ذلك نصركم الله وأيدكم بروح من عنده بعد أن تعماوا مافى طافتكم من طاعة ربكم وتشقوا به فيما لا يصل إليه كسبكم إن كنتم مؤمنين بأن وعد الله حق وأنه قادر على الوفاء به ، وإنما جزم هذان الرجلان بأنهم سيغلبون إذا دخلوا ثقة بنبوة موسى وهو قد أخبرهم بأن الله أمرهم بدخول الأرض المقدسة التى كتبها لهم ، لا جرم قطعاً بالنصر والغلبة على العدو .

(قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) أى إنهم أصروا على العناد والتمرد ولم تغن عنهم عظات الرجلين

شيئاً ، فأكدوا لموسى أنهم لا يدخلون هذه الأرض مدى حياتهم ما دام فيها الجبارون ، لأنهم لا طاقة لهم بالحرب والقتال إذ ليسوا من أهله ، فإن صحت عزيمتك على ذلك فاذهب أنت وربك الذى أمرك بذلك فقاتلا الجبارين وأخرجاهم من هذه الأرض وإنا هاهنا فاعدون منتظرون .

وهذا القول الذى صدر منهم يدل على منتهى الجفاء والبعد عن الأدب وليس هذا بالغريب من أمثال هؤلاء الذين عبدوا العجل وكان دأبهم الشغب مع أنبيائهم وقتلوا كثيراً منهم كبشعيا وذكرياء وقص القرآن كثيراً من فساد طباعهم وقسوتهم وغفلتهم .

(قال رب إني لا أملك إلا نفسى وأخى) أى قال موسى بآث شكواه إلى ربه معتذرا من فسق قومه عن أمره الذى يبطله عن ربه - إني لا أملك أمر أحد أهلهم على طاعتك إلا أمر نفسى وأمر أخى ولا أثق بغيرنا أن يطيعك فى اليسر والعسر والمنشط والمكره (المحبوب والمكروه) .

وفى هذا إيماء إلى أنه لم يكن موقنا بثبات يوشع وكالب ورغبتهما فى الطاعة إذا أمر الله بدخول أرض الجبارين والتصدى لقتالهم ، فإن من يجروء على القتال مع الجيش الكبير فربما لا يجروء عليه مع العدد القليل ، وأما مقتته بأخيه فلما رأى من بلائه معه فى مقاومة فرعون وقومه ولسياسة أمور بنى إسرائيل عند مناجاة ربه ، ولما يعلم من تأييد الله له بمثل ما أيد به .

(فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) الفرق : الفصل بين الشيئين أو الأشياء أى فافصل بيننا (يريد نفسه وأخاه) وبين القوم الفاسقين عن طاعتك بقضاء نقضيه بيننا فتحكم لنا بما نستحق ، وعليهم بما يستحقون فقد صرنا خصما لهم وصاروا خصما لنا ، وقيل إن المعنى : إنك إذا أخذتهم بالعقاب على قسوتهم فلا تعاقبنا ، معوم فى الدنيا . (قال فإنها محزنة عليهم أربعين سنة يتوبون فى الأرض) التيه الخيرة ، يقال تاه يتيه : إذا تحير ومغارة تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم الأعلام التى يهتدى بها ،

والتحريم : المنع أى قال الله لموسى مجيبا دعوته : إن الأرض المقدسة محرمة على بنى إسرائيل تحريما فعليا لا تكليفا شرعيا مدة أربعين سنة يتيهون فيها فى الأرض أى يسكرون فيها فى برية تأهين متحيرين لا يدرون أين مصيرهم .

(فلا تأس على القوم الفاسقين) الأسى الحزن يقال أسيت عليه أسى وأسيت له أى فلا تحزن عليهم ، لأنهم فاسقون متمردون مستحقون لهذا التأديب الإلهى .

جاء فى الفصل الرابع من سفر العدد أن بنى إسرائيل لما توردوا وعصوا أمر ربهم ، سقط موسى وهرون على وجوههما أمامهم ، وأن يوشع وكالب مرقا ثيابهما ونهيا الشعب عن التمرد وعن الخوف من الجبارين ليطيع ، فهم الشعب برجمهما وظهر مجد الرب لموسى فى خيمة الاجتماع (وقال الرب لموسى : حتى متى يهيننى هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقونى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ إني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم) فشفع موسى فيهم لئلا يشمت بهم المصريون ، وبه تقبل الرب شفاعته ثم قال (إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا قولى ، لن يروا الأرض التى خلقت لأبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها) واستثنى الرب كالب فقط ... (أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا وكل هذه الجماعة الشريرة المتفكة على ، فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون) .

وإن فى هذا العقاب الإلهى اعبرة لأولى الألباب ، يستفيدون منها أن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستعباد تذهب أخلاقها ويذهب بأسها وتضرب عليها الذلة والمسكنة وتأنس بالمهانة ، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غائرا وطباعا خلقية لها فإذا خرجوا من بيتهم ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد حنوا إلى ما كانوا فيه وتاقت نفوسهم إلى الرجوع إليه ، وهذا شأن البشر فى جميع ما يألفون ، ويجرون عليه من خير وشر .

وقد أفسد ظلم الفراعنة فطرة بنى إسرائيل فى مصر وطبع عليهم بطابع الذلة والمهانة ، وقد أراهم الله تعالى مالم ير أحدا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى عليه السلام ، وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من العبودية إلى نعيم الحرية ، ومع هذا كله كانوا إذا أصابهم نصب أو جوع أو كلفوا أمرا يشق عليهم يتطيلون بموسى ويذكرون مصر ويحنون إلى العودة إليها ، وحين غاب عنهم لمناجاة ربه اتخذوا لهم عجلا من حليهم وعبدوه وكان الله يعلم أن نفوسهم ميتة لا تطيعهم على دخول أرض الجبارين وأن وعده تعالى لأجدادهم إنما يتم إذا هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية ونشأ بعده جيل فى حرية البداوة وعدل الشريعة .

وعلى هذه السنة العادلة أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله لكنهم أبوا واستكبروا فأخذهم بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قوما آخرين جعلهم الأئمة الوارثين بهمهم الموافقة لسنته فى الاجتماع .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)

لَنْ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لَتَقَتِّلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْمَى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ
أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
يَعْتَدُ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

التلاوة: القراءة، ولاتكاد تستعمل إلا في قراءة كلام الله تعالى ، والنبأ: الخبر الذي
يهتم به لقائده ومنفعة عظيمة ، والقربان : ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها ،
وهو في الأصل مصدر فلهذا يستوى فيه الواحد وغيره، و بسط اليد إليه: مدها ليقبله؛
البوء : اللزوم ، وفي النهاية لابن الأثير : أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي أى ألتزم وأقر ،
فطوعت أى فشجعت وزينت، والسوءة: ما يسوء ظهوره، والويل حلول الشر، والويلة:
الفضيحة والبذرة أى وافضحتاه ، والأجل: في الأصل الجناية ، يقال أجل عليهم شرا
أى جنى عليهم جناية ثم استعمل في تعليل الجنايات ، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل
سبب ، والبيّنات الآيات الواضحة، والإسراف: البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم وإعراضهم عن
دعوته مع وضوح البرهانات الدالة على صدقه وكثرة الآيات المثبتة لنبوته ، حتى هم
قوم منهم أن يبسطوا أيديهم لقتله وقتل كبار أصحابه ، كما ذكر ذلك في قوله :
« إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » ذكر هنا قصة
ابنى آدم بيانا لكون الحسد الذي صرف اليهود عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم
وحملهم على عداوته عريقا في الآدميين وأثر من آثار سلفهم كان هؤلاء منه الحظ الأوفر

فلا تعجب من حالهم بعد هذا ، فإن لهم أشباها ونظائر في البشر كابنى آدم ، وقد حدث بينهم من أجل التحاسد سفك الدماء وقتل الأخ أخاه وبذر تلك البذور السيئة في بنى آدم إلى قيام الساعة .

الإيضاح

(وائل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) جمهرة العلماء على أن هذين الابنين هما ابنا آدم من صلبه ، وفي سفر التكوين أنهما أول أولاد آدم ، اسم أحدهما قاي ن أو قاي ن وهو البكر ، وسماه المفسرون والمؤرخون من المسلمين قاييل وهو القاتل ، واسم الثانى هايل وهو المقتول ؛ وقد ذكروا روايات غريبة عنهما لا تعرف إلا من الوحي وفى وصف الله تعالى ما قاله « بالحق » دليل على أن ما يلوكة الناس سوى ذلك فباطل .

أى وائل أيها الرسول على أهل الكتاب وغيرهم من الناس ذلك النبأ العظيم نبأ ابنى آدم تلاوة كاشفة للحق مظهرة له مبينة لفرائز البشر وطبائعهم ، وهى أنهم جبلوا على التباين والاختلاف الذى يفضى إلى التحاسد والبغى والقتل ، ليعادوا الحكمة فيما شرعه الله فى عقاب البغاة من الأفراد والجماعات ويفقهوا أن بغى اليهود على الرسول والمؤمنين ليس من دينهم فى شيء ، وإنما ذاك للحسد والبغضاء ؛ فما مثلهم إلا مثل ابنى آدم إذ حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله وكان ما بينه الله فى الآيات بعد .

(إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) أى اتل عليهم نبأهما وقت تقديم كل منهما قربان وما تبعه من البغى والعدوان فتقبل الله من أحدهما قربانه لتقواه وإخلاصه وطيب نفسه به ولم يتقبل من الآخر لعدم التقوى والإخلاص . ولم يبين لنا سبحانه كيف علما أنه تقبل من أحدهما دون الآخر ، وربما كان ذلك بوحي من الله لأبيهما آدم عليه السلام .

وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما أن أحدهما كان صاحب حرث وزرع

قرب شر ماعنده وأرداه غير طيبة به نفسه، وكان الآخر صاحب غنم وقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة به نفسه، كما روى عن بعضهم أن القربان المقبول كانت تحبىء النار من السماء لتأكله ولا تأكل غير المقبول، وكل هذا من الأخبار الإسرائيلية التي ليس لها مستند يوثق به، والقرايين عند اليهود أنواع :

(منها) المحرقات للتكفير عن الخطايا بذبح ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب (ومنها) التقدّمات من الدقيق والزيت والألبان . (ومنها) ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى .

والقربان عند النصارى ما يقدهه الكاهن من الخبز والخمر فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقة .

والقربان عند المسلمين اسم للذبائح النسك كالأضاحى وغيرها . (قال لأقتلنك) أى إن من لم يتقبل منه تواعد أخاه وحلف ليقتلنه فأجاب الآخر أحسن جواب .

(قال إنما يتقبل الله من المتقين) أى لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الأعمال إلا ممن يتصف بتقوى الله والخوف من عقابه باجتنابه الشرك وسائر المعاصى كالرياء والشح واتباع الأهواء .

وخلاصة جوابه — إننى لم أذنب إليك ذنبا تقتلنى به ، فإن كان الله لم يتقبل قربانك فحاسب نفسك لتعرف سبب ذلك ، فإن الله إنما يتقبل من المتقين ، فاحمل نفسك على تقوى الله والإخلاص له فى العمل ثم تقرب إليه بالطيبات يتقبل منك قال تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وفى الحديث : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب » .

وفى هذا من العبرة ما كان ينبغى أن يتعظ به المرامون الذين يبتغون بما يتصدقون به الصيت واجتلاب الثناء من الناس وحسن الأحداث .

ثم بين سبحانه ما يجب للناس من احترام الدماء وحفظ الأنفس ولا سيما بين الإخوة فقال :

(لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك) أى إن مددت يدك لتقتلني فما أنا بالمجازي لك على السيئة بسيئة مثلها فذاك لا يتفق مع شمالي وصفاتي ، إذ لست ممن يتصف بهذه الصفة المنكرة التى تنافى تقوى الله والخوف من عذابه وهذا ما عنده بقوله :

(إني أخاف الله رب العالمين) أى إني أخاف الله وأخشى أن يرانى باسطا يدي إلى الإجرام وسفك الدماء بغير حق ، وهو رب العالمين الذى يغذيههم بنعمه ويريههم بفضلهم وإحسانه ، فالاعتداء على أرواحهم أكبر مفسدة لهذه التربية .

ولا شك أن هذا الجواب يتضمن أبلغ الموعظة والاستعطاف لأخيه العازم على الجناية ، ونيس فى الكلام ما يدل على عدم الدفاع البتة ، ولكن فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل ، وقد روى أحمد والشيخان وغيرهم قوله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المسلمان بسيفهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول فى النار. قيل يا رسول الله هذا القاتل ! فما بال المقتول ؟ قل إنه كان حريصا على قتل صاحبه » .

ثم قفى على عظته الباطنة ونصائح النافعة بالتذكير بعذاب الآخرة ، من قبل أن الوعظ لا يؤثر فى كل نفس فقال :

(إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) أى إني أريد بالابتعاد من مقابلة الجريمة بمثلها أن ترجع إن فعلتها ملتبسا بإثمي وإثمك أى بإثم قتلك إياي ، وإثمك الخصب بك الذى كان من آثاره عدم قبول قربانك ، وروى هذا عن ابن عباس .

وقيل إن المراد - أن القاتل يحمل فى الآخرة إثم من قتله إن كان له آثام لأن الذنوب والآثام التى فيها حقوق العباد لا يغفر الله منها شيئا حتى يأخذ لكل ذى حق حقه فيعطى المظلوم من حسنات الظالم ما يساوى حقه إن كانت له حسنات

توازي ذلك ، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازي ذلك إن كان له آثام وأوزار وما نقص من هذا أوداك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار .
(فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) أى فتكون بما حملت من الإثمين من أهل النار في الآخرة جزاء ظلمك ، والنار جزاء كل ظالم .

وقد سلك في عظمته وجوها تأخذ بمجامع اللب ، ويرعوى لها فؤاد المنصف ، فقد تبرأ من كونه سببا في حرمانه من تقبل القرابان ، لأن سبب التقبل عند الله هو التقوى .

ثم انتقل إلى تذكيره بما يجب من خوف الله ، ثم إلى تذكيره بأن المعتدى يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه ، ثم إلى تذكيره بعذاب النار لأنها مشوى الظالمين .
ثم أبان سبحانه أن المواءم لم تجد فيه فتىلا ولا قطميرا . فمأذا تغنى الزواجر والمعطات في نفس الحاسد الظالم ؟ فقال :

(فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله) أى إنه كان يهاب قتل أخيه وتجنب فطرته دونه ، وما زالت نفسه الأمانة تشجعه عليه حتى تجرأ وقتله عقب التطوع بلا تفكير ولا تدبر في العاقبة ، والمشهد بالاختبار من أعمال الناس أن من تحدثه نفسه بالقتل يجد من نفسه صارفا أو عدة صوارف نهاه عن القتل حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح الفعل على الترك ، فحينئذ يقتل إن قدر .

(فأصبح من الخاسرين) أى من الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة ، فهو في الدنيا قد قتل أبر الناس به وهو الأخ التقى الصالح ، وخسر الآخرة لأنه لم يصبر أهلا لتعيمها الذى أعد للمتقين .

(فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه) لما كان الإنسان في أعماله موكولا إلى كسبه واختياره ، وكان هذا القتل أول قتل وقع من بنى آدم - لم يعرف القاتل كيف يواري جثة أخيه المقتول الذى يسبوؤه أن يراها

بارزة للعيان ، وفى ذلك دليل على أن الإنسان فى نشأته الأولى كان ساذجا قليل المعرفة ، لكن لما فيه من الاستعداد والعقل كان يستفيد من كل شىء علما واختبارا وتنمية لمعارفه وعلومه ، وقد أعلمنا الله أن القاتل تعلم دفن أخيه من الغراب ، فإنه تعالى بعث غرابا إلى ذلك المكان الذى هو فيه فبحث فى الأرض أى حفر برجليه فيها يفتش عن شىء كالطعام ونحوه فأحدث حفرة فى الأرض فلما رآها القاتل - وقد كان متحجرا فى مواراة أخيه - زالت الحيرة واهتدى إلى دفنه فى حفرة مثلها .

وقوله ليريه : أى إنه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن .
وحين رأى القاتل الغراب يبحث فى الأرض وتعلم منه سنة الدفن وظهر له جهله وضعفه :

(قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين) أى قال وافضحى أقبلى فقد آن الأوان لجيئك ، فهل بلغ من عجزى أن كنت دون الغراب علما وتصرفا ؟ والندم الذى أظهره من الأمور التى تعرض لكل من يفعل شيئا ثم يتبين له خطأ فعله وسوء عاقبته .

روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل (نصيب) من دمها لأنه أول من سن القتل » .
والندم الذى يكون توبة هو ما يصدر من الشخص خوفا من الله وحسرة على تعدى حدوده ، وهو الذى عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « الندم توبة » رواه أحمد والبخارى والحاكم والبيهقى .

(من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) أى إنه بسبب هذا الجرم القطيع والقتل الشنيع الذى فعله أحد هذين الأخوين ظلما وعدوانا فرضنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أى بغير سبب موجب للقصاص الذى شرعه فى قوله « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » الآية ، أو قتل نفسا بغير سبب فساد فى الأرض يسلب

الأمن والطمأنينة وإهلاك الحرث والنسل كما تفعله عصابات اللصوص المسلحة المستعدة لقتل الأنفس ونهب الأموال أو لإفساد الأمر على الدولة التي تقوم بتنفيذ حدود الله تعالى.

من يفعل شيئا من ذلك فكأنما قتل الناس جميعا إذ الواحد يمثل النوع ، فمن استحل دمه بغير وجه حق استحل دم كل واحد كذلك لأنه مثله ، والمقصد من ذلك تعظيم أمر القتل العمد العذوان وتفخيم شأنه ، أى فكأن أن قتل كل الخلق مستعظم مستبشع لدى الناس كلهم فكذلك قتل الواحد مستنزع مستعظم ، وكيف لا يكون مستعظما وقد قال تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » .

(ومن أحيائها فكأنما أحيأ الناس جميعا) أى ومن كان سببا فى حياة نفس واحدة بإتقادها من موت كانت مشرفة عليه فكأنما أحيأ الناس جميعا ، لأن الباعث له على الإنقاذ وهو الشفقة والرحمة واحترام الحياة الإنسانية والوقوف عند حدود الشرائع ، دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من الهلاك لا يدخر وسعا ولا ينى فى ذلك .

وفى الآية إرشاد إلى ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع والابتعاد عن ضرر كل فرد ، فانتهاك حرمة الفرد انتهاك لحرمة الجميع ، والقيام بحق الفرد بمقدار ما قرر له فى الشرع قيام بحق الجميع ، وتقدم أن قلنا إن القرآن كثيرا ما يشير إلى وحدة الأمة ووجوب تكافلها حتى إنه يسند أعمال المتقدمين منها إلى المتأخرين ويشير إلى أن جناية الإنسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم .

وقد وردت قصة ابنى آدم فى الفصل الرابع من سفر التكوين ، فقد جاء فيه : إن قايين لما قدم للرب من ثمرات الأرض وقدم هابيل قربانا من أبكار غنمه ونظر الرب إلى هابيل وقربانه دون أخيه اغتاظ قايين وقتل هابيل فسأله الرب عنه : أين هو فأجاب : لا أعلم ، هل أنا حارس لأخى ، فلعنه الرب وطرده عن وجه الأرض فندم

واسترحم الرب وخاف أن يقتله كل من وجده ، فقال له الرب لذلك : كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده ، فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرق عدن .

(ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) أى ولقد جاءتهم الرسل بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم المؤكدة لوجوب مراعاته والحفاظة عليه لكنها لم تنفع عن الكثير منهم شيئا فلم تهذب نفوسهم ولم تظهر أخلاقهم فكانوا بعد كل هذا التشديد عليهم في أمر القتل يسرفون فيه وفي سائر ضروب البغى والعدوان .

والعبرة في قصة ابني آدم أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر ولا يزال هو أسّ المفاسد في المجتمع فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه نسبا أو جنسا أو دينيا فيبغى عليه ولو بما فيه ضرر له ولهذا المحسود .

والأمة التي تنتشر بين أفرادها هذه الرذيلة قلما تتوجه هم أبنائها إلى ما يرق شأنهم بين الأمم الأخرى ، وقلما يتعاونون على ما فيه صلاحهم وتقدمهم في سائر مرافق الحياة فيصبحون عبيدا لسواهم بعد أن كانوا سادة ، وأذلاء ، بعد أن كانوا في عزة وبكهنية من العيش .

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا، أَوْ يُصَلَّبُوا، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) .

شرح المفردات

الحاربة : من الحرب ضد السلم ، والسلم : السلامة من الأذى والضرر والآفات والأمن على النفس والمال ، والأصل في معنى كلمة الحرب التعدى وسلب المال ، وحرية الرجل : ماله الذى يعيش فيه ، والفساد : ضد الصلاح ، وكل ما يخرج عن وضعه الذى يكون به صالحا نافعا يقال إنه فسد ، ومن كان سببا لفساد شئ ، يقال إنه أفسده ، وإزالة الأمن على الأنفس أو الأموال أو الأعراض ومعارضته تنفيذ الشريعة العادلة كل ذلك إفساد فى الأرض ، والتقتيل : المبالغة فى القتل بكونه حتما لا هوادة فيه ولا عفو من ولى الدم ، والتصليب المبالغة فى الصلب أو تكرار الصلب كما قال الشافعى : يصب بعد القتل ثلاثة أيام بأن يربط على خشبة ونحوها منتصب القائمة ممدود اليدين ، وربما طعنوا المصلوب ليعجلوا موته ، ونقطيع الأيدي والأرجل من خلاف : معناه إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى ، والعكس بالعكس ، والنفي من الأرض : النقل من البلد أو القطر الذى أفسدوا فيه إلى غيره من بلاد الإسلام إذا كانوا مسلمين ، فإن كانوا كفارا جاز نفيهم إلى بعض بلاد الإسلام أو بعض بلاد الكفر ، والخزى الذل والفضيحة ، ومن قبل أن تقدروا عليهم : أى من قبل التمكن من عقابهم .

المعنى الجملى :

بعد أن أبان سبحانه فظاعة جرم القتل وشدد فى تبعة القاتل فذكر أن من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا - ذكر هنا العقاب الذى يؤخذ به المفسدون فى الأرض حتى لا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم ، وقد ذهب أكثر الأئمة إلى أن الآيتين نزلتا فى عكس وعريضة ، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أنس « أن ناسا من عكس وعريضة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلموا

بالإسلام ، فاستوخوا المدينة (وجدوها رديئة المناخ) فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بنود (بضع من الإبل) وراع وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها ؛ فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعى النبي واستاقوا الذود ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الطلب في آثارهم ، فأمر بهم فستروا أعينهم (كحلوها بمسامير الحديد الحماة) وقطعوا أيديهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم « زاد البخارى أن قتادة الذى روى الحديث عن أنس قال: «بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة» . وروى أبو داود والنسائى عن أبي الزناد « أن رسول الله لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار ، عاتبه الله فى ذلك فأنزل : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا) » الآية .

الإيضاح

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) أى إن جزاء الذين يفعلون ما ذكر - عقابهم ما سيذكر بعد على سبيل الترتيب والتوزيع على جنایاتهم ومفاسدهم لكل منها ما يليق بها من العقوبة .

وقد جعل هذا النوع من العدوان محاربة لله ورسوله ، لأنه اعتداء على الحق والعدل الذى أنزله الله على رسوله ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه فى حفظ الحقوق كما قال تعالى فى المصرين على أكل الربا « فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة يعدوا محاربين لله والرسول ويجب على الإمام الذى يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك كما فعل أبو بكر بمانعى الزكاة ، حتى يفيثوا ويرجموا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم فى أى وقت يقبل منه ويكف

عنه ، وقوله : ويسعون في الأرض فسادا أى يسعون فيها سعى فساد أى مفسدين لما صلح من أمور الناس في نظم الاجتماع وأسباب المعاش .

وجهور العلماء على أن الآية نزلت في قطاع الطريق من المسلمين كما تدل على ذلك حادثة العربيين الذين خدعوا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بإظهار الإسلام حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شرهم معهم ، وقد عاقبهم النبي صلى الله عليه وسلم بمثل عقوبتهم عملا بقوله تعالى : « وَجَزَاهُ سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلُهَا » ويشترط في المحاربين ثلاثة شروط :

(١) أن يكون معهم سلاح وإلا كانوا غير محاربين .

(٢) أن يكون ذلك في الصحراء فإن فعلوا ذلك في البنان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثوري وإسحق .

(٣) أن يأتوا بمجاهرة ويأخذوا المال ، فإن أخذوه خفية فهم سراق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذا إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئا لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة ، وإن خرجوا على عدد يسير فقهرهم قطع طريق .

والجزء الذي يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة : إما القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض ، وفوض لأولى الأمر الاجتهاد في تقدير العقوبة بقدر الجريمة ، والحكمة في عدة التعمين والتفصيل أن المفاسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان وضررها يختلف كذلك ، فمنها القتل ومنها السلب ومنها هتك الأعراض ومنها إهلاك الحرث والنسل أى قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشى والدواب أو الجمع بين جر يمتين أو أكثر من هذه المفاسد ، فلا إمام أن يقتلهم إن قتلوا ، أو يصلبهم إن جمعوا بين أخذ المال والقتل ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اتصروا على أخذ المال ، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق .

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات ، فالتقت العمد العدوان يوجب القتل ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص فغلظ ذلك فى قاطع الطريق وصار القتل حتما لاهوادة فيه ولا يجوز العفو عنه ، وأخذ المال يتعلق به قطع اليد اليمنى فى غير قاطع الطريق فغلظ فى قاطع الطريق بقطع الطرفين . وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع فى حقهم بين القتل والصلب . لأن بقاءهم مصوبين فى ممر الطرق يكون سببا لاشتغال إيقاع هذه العقوبة فيصير ذلك زاجرا لغيرهم عن الإقدام على مثل هذه المعصية ، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهى النفي من الأرض .

(لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) أى ذلك الذى ذكر من عقابهم - ذل لهم وفضيحة فى الدنيا ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم بقدر تأثير إفسادهم فى تدنيس نفوسهم وتدنيسها وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام .

(إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) أى لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذى تقدم ذكره إلا من قطعوا الطريق وعانوا فى الأرض فسادا ثم تابوا إلى الله وأنابوا من قبل أن يتمكن منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم ، فإن تابتهم حينئذ وهم فى قوة ومنعة جدية بأن تكون توبة خالصة لله صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا ، وإذا فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله ، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بل يصيرون لمغفرة الله ورحمته كما قال :

(فاعلموا أن الله غفور رحيم) أى فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم ، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب فى الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى حقوق العباد فلن سلبهم الثائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحدا أن يطالبوه بدمه ، وهم يخبرون بين القصاص

والدية والعفو ، فقد ثبت عن الصحابة إسقاط الحد عن تاب ، ولم يثبت أن أحدا تقاضى التائب حقا ولم يسمع له الحاكم .

وإذا فتوبته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوقة إلى أربابها ، فإذا رأى ولي الأمر إسقاط حق مالى عن الفساد مراعاة للمصلحة العامة وجب أن يضمه من بيت المال (وزارة المالية) .

والمخلاصة — أن هاتين الآيتين تضمنتا عقاب المخاريب المفسدين فى الأرض الذين يعملون أعمالا مخلة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض فى بلاد الإسلام معتمدين فى ذلك بقوتهم مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم ، وهو أن يطاردهم الحكام ويتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ومراعاة المصلحة العامة ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما هنا من العقوبات بل حكمه حكم سائر المسلمين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَافِ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف أن اليهود قد هموا ببسط أيديهم إلى الرسول حسدا منهم له وغرورا بدينهم واعتقادا منهم أنهم أبناء الله وأحباؤه — أمر المؤمنين بأن يتقوه ويبتغوا إليه الوسيلة بالعمل الصالح ولا يفتنوا بدينهم كما فعل أهل الكتاب.

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) اتقاء الله هو اتقاء سخطه وعقابه بعدم مخالفة دينه وشرعه ، والوسيلة ما يتوصل به إلى مرضاته والقرب منه واستحقاق مشوبته في دار الكرامة .

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال في تفسير الآية أى تقر بوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وروى أحمد والبخارى وأصحاب السنن من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء - الأذان - اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » وروى أحمد ومسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعباد الله وأرجو أن أكون هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وبهذا يعلم أن هذه الوسيلة هى أعلى منازل الجنة فمن دعا الله تعالى أن يجعلها للنبي صلى الله عليه وسلم كافأه النبي صلى الله عليه وسلم بالشفاعة وهى دعاء أيضا ، والجزاء من جنس العمل .

(وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ) الجهاد من الجهد وهو المشقة والتعب ، وسبيل الله هى طريق الحق والخير والفضيلة ، وكل جهد فى الدفاع عن هذه ، وحمل لندس عليها فهو جهاد فى سبيل الله .

أى جاهدوا أنفسكم بكفها عن أهوائها ، وحملها على النصفة والعدل فى جميع الأحوال ، وجاهدوا أعدائى وأعداءكم وأتعبوا أنفسكم فى قتالهم ومنعهم من مقاومة الدعوة .

(لعلكم تفلحون) أى افعلوا كل هذا رجاء الفوز والفلاح والسعادة فى المعاش والمعاد والخلود فى جنات النعيم .

وبعد فلم يؤثر عن صحابى ولا تابعى ولا أحد من علماء السلف أن الوسيلة هى التقرب إلى الله تعالى بغير ما شرعه الله للناس من الإيمان والعمل كالدعاء ونحوه .

ولكن جد فى القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين أى جعلهم وسائل إلى الله تعالى والإقسام بهم على الله ، وطالب قضاء الحاجات ودفع الضر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو بعيدا عنها ، وكثر هذا حتى أصبح الناس يدعون مع الله أصحاب القبور فى الحاجات أو يدعونهم من دون الله وألف بعض الناس كتباً فى هذا وزعم أنهم يسمعون ويستجيبون للداعى ، وشغف العامة بمثل هذا القول الخالف لقول الله تعالى : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ » وقوله : « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

والذى عليه المول فى ذلك أن لفظ التوسل يراد به أحد معان ثلاثة :

(١) التوسل إلى الله بطاعته والتقرب إليه بفعل ما يرضيه ، وهذا فرض حتم وبه جاءت الشرائع وهو أس كل دين .

(٢) التوسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بدعائه وشفاعته كما كان الصحابة يفعلون ، وهذا كان فى حال حياته ولهذا قال عمر بن الخطاب : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » أى بدعائه وشفاعته ، ويوم القيامة يتوسل المؤمنون بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم وشفاعته .

(٣) التوسل بالله بمعنى الإقسام بذاته وهذا لم تكن الصحابة تفعله فى الاستسقاء ونحوه لافى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولا بعد مماته لا عند قبره ولا بعيدا عنه

ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية الماثورة عندهم ، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة أو عن ليس قوله حجة ، وقد قال أبو حنيفة وأصحابه : إن مثل هذا لا يجوز وقالوا لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك ، ولا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وكرهوا أن يقال بمعاقد العزم من عرشك أو بحق خلقك لأنه لاحق للخلق على الخالق .

والخلاصة — أن الوسيلة ما تتقرب به إلى الله وترجو أن تصل به إلى مرضاته بما شرعه لتزكية نفسك ، وقد دل كتاب الله في جلته وتفصيله على أن مدار النجاة والفلاح هو الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى : « وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » وقال : « لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » وقال : « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

نعم دلت السنة على أن دعاء المؤمن لغيره قد ينفعه ، وثبت أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصا على إيمان عمه أبي طالب فأنزله الله عليه « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

والخلاصة — أن العمدة في تقرب الإنسان إلى الله وابتغاء مرضاته هو إيمانه وعمله لنفسه ، فإذا لم يعمل لنفسه ما شرعه الله وجعله سبب فلاحه ، فهل يكون قد ابتغى إليه الوسيلة بطلب الدعاء من بعض عباده المكرمين أو طلبه منهم بعد موتهم أن يشفعوا له أي يدعوا له .

كلا إن الطلب من الميت غير مشروع فضلا عن أنه لا يعلم إن كان مقبولا أو غير مقبول ، فإن ذلك من أمور الآخرة « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله ضعيف بل موضوع ، وحديث الأعمى الذي علمه أن يقول : « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » لا يصلح حجة في هذا الباب ، لأنه إنما توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « اللهم

شفعه في » وقد رد الله عليه بصره حين دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

والحلف بالخلوقات حرام عند أبي حنيفة والشافعي ، وحكى إجماع الصحابة على ذلك حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليّ من أن أحلف بغير الله صادقا ، وقد جاء في الصحيحين أنه قال : « من كان حائفا فليحلف بالله » وقال : « لا تحلفوا بآبائكم فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » .

والحلف بالأنبياء ليس يمين عند مالك وأبي حنيفة والشافعي فلا كفارة فيه . وكذلك الحلف بالخلوقات المحترمة كالعرش والكرسي والكمبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى . ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين .

(إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) أي إن الذين جحدوا ربوبية ربهم وعبدوا غيره من عمل أو صنم أو وثن وهتكوا وهم على هذه الحال قبل التوبة لو أن لهم ملك مافي الأرض كلها وضعفه معه ليفتدوا به من عقاب الله إياهم على تركهم أمره وعبادتهم غيره ؛ فافتدوا بذلك كله يوم القيامة ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضا من عذابهم وعقابهم ، بل هو معذبهم عذابا موجعا مؤلما لهم ، لأن سنته تعالى قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان لأمن خارج عنها « قَدْ أَفْحَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم ، والمسلمون يعتقدون أن العمدة في النجاة تركية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة .

وهذه الجملة جاءت مؤكدة لبيان أن أساس الفوز في الآخرة تقوى الله والتوسل إليه بالإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيله .

(يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) المقيم هو الثابت الذى لا يرتحل أبداً ، أى يتمنون الخروج من النار دار العذاب والشقاء بعد دخولهم فيها وما هم بخارجين منها البتة ، ثم أكد ذلك بإثبات العذاب المقيم لهم فيها .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه عقاب المخارجين الذين يفسدون في الأرض ويأكلون أموال الناس بالباطل جهرة ، وأمر بتقوى الله وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيله ، وهى الأعمال التى يكمل بها الإيمان وتهذب بها النفوس حتى تنفر من الحرام وتبتعد عن المعاصى .

ذكر هنا عقاب اللصوص الذين يأكلونها كذلك خفية ، وجمع في هذه الآيات بين الوازع الداخلى وهو الإيمان والصلاح والوازع الخارجى وهو الخوف من العقاب والنكال .

الإيضاح

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) أى ومن سرق من رجل أو امرأة فاقطعوا يا ولاية الأمور والقضاة والحكام يده من الكف إلى الرسغ ، لأن السرقة

تحصل بالكف مباشرة والساعد والعضد يحملان الكف كما يحملهما معهما البدن ،
والتي تقطع أولا هي اليمنى لأن التناول غالبا يكون بها .

وقد اختلف الأئمة في المقدار الذى يوجب قطع اليد فى السرقة ، فروى عن
الحسن البصرى وداود الظاهرى أنه يثبت القطع بالقليل والكثير لظاهر الآية
والحديث « لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الجمل فتقطع يده »
رواه الشيخان عن أبى هريرة ، وجهور العلماء من السلف والخلف على أن القطع
لا يكون إلا فى سرقة ربع دينار « ربع مثقال من الذهب » أو ثلاثة دراهم من
الفضة لحديث عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع يد السارق فى ربع
دينار فصاعدا » رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن ، ولحديث ابن عمر
فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قطع فى بَجَنٍّ (تُرْس) ثمنه ثلاثة دراهم .
ويرى الحنفية أن القطع لا يكون إلا فى عشرة دراهم فأكثر لا مادونها ، ولا بد أن
يكون المال محفوظا فى حرز وإلا فلا قطع .

وتثبت السرقة بالإقرار أو البينة ، ويسقط الحد بالعفو عن السارق قبل رفع أمره
إلى الإمام .

(جزاء بما كسبنا نكالا من الله) النكال من النكل (بالكسر) وهو قيد
الدابة ، فالنكال ما ينكل الناس ويمنعهم أن يسرقوا .

أى اقطعوا أيديهما جزاء لما بعملهما وكسبهما السوء ونكالا وعبرة لغيرهما ،
ولا عبرة أعظم من قطع اليد الذى يفضح صاحبه طول حياته ويسمه بميسم العار
والخزى ، ولا شك أن هذه العقوبة أجدر بمنع السرقة وتأمين الناس على أموالهم
وأرواحهم ، فالأرواح كثيرا ما تزهق إذا قاوم أهلها السراق وحاولوا منعهم من
أخذ الأموال .

(والله عزيز حكيم) أى عزيز فى انتقامه من هذا السارق والشارقة وغيرها
من أهل المعاصى ، حكيم فى صنعه فهو يضع الحدود والعقوبات على حسب الحكمة

التي توافق المصلحة ، فما أمر الله بأمر إلا وهو صلاح ولا نهى عن أمر إلا وهو فساد وكأنه يقول : اشتدوا على السراق فاقطعوهم يدا يدا ورجلا رجلا .

(فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم)
أى فمن تاب من السرّاق ورجع عن السرقة بعد ظلمه لنفسه بعمله مانهاه الله عنه من سرفة أموال الناس وأصلح نفسه وركاها بأعمال البر فإن الله يقبل توبته ويرجع إليه بالرضا ويغفر له ويرحمه .

ولا يسقط الحد عن التائب ولا تصح التوبة إلا بإعادة المال المسروق بعينه إن كان باقيا وإلا فدفع قيمته إن قدر .

(ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله له ملك السموات والأرض يدبر الأمر فيهما بحكمته وعدله ورحمته وفضله ، ومن حكمته أن وضع هذا العقاب لكل من يسرق ما يعده سارقا كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين فى الأرض ، ويغفر لمن تاب من هؤلاء وهؤلاء ويرحمه إذا صدق فى التوبة وأصلحا عملهما ويعذب من يشاء تعذيبه من العصاة تربية له ونأmina لعباده من أذاه وشره ، كما يرحم من يشاء من التائبين برحمته وفضله ، ترغيبا لهم فى تزكية أنفسهم ، وهو القادر على كل شيء من التعذيب والرحمة لا يعجزه شيء فى تدبير ملكه .

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ

يُطَهَّرُ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)
 سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ
 أَعْرِضْ عَنْهُمْ . وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ
 فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ مُحْكَمُونَ
 وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
 بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) .

شرح المفردات

الحزن : ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب ، وسرع إلى الشيء : إذا أسرع إليه
 من خارج ليصل إليه ، وأسرع فيه : إذا أسرع في أعماله وهو داخل فيه ، وهنا كان
 الكفار داخلين في ظرف الكفر وهو محيط بهم مرادقه، والفتنة : الاختبار كما يفتن
 الذهب بالنار فيظهر مقدار ما فيه من الغش والزغل ، والسحت : ما خبت من المكاسب
 وحُرِّم فلزم عنه العار وقبح الذكر كشم الكلب والخنزير والخمر والرشوة في الحكم ،
 والقسط : العدل .

المعنى الجملى

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن البراء بن عازب قال :
 «مر النبي صلى الله عليه وسلم بيهودى محمداً^(١) مجلوداً ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون
 حد الزانى في كتابكم ؟ قالوا : نعم فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى
 أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى في كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا

(١) التعميم : وضع الحمة أى الفحمة في الوجه ، وهو كالتسخيم الذى جاء في الرواية الأخرى ،
 من السخام : وهو سواد القدر

أَنْتَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أَخْبِرْكَ ، نَجِدُ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِنَا الرِّجْمَ ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرْكَنَاهُ وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقْمَنَّا عَلَيْهِ الْحَدَّ فَقَلْنَا تَعَالَوْا فَلْتَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نَقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرِّجْمِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ وَأَمْرُهُ فَرَجَمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ (يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ - إِلَى قَوْلِهِ (إِنْ أَوْتَيْتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ) » .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَابْنُ خُبَّازٍ وَمُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : « إِنْ الْيَهُودُ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَانَا فَقَالَ : مَا تَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمْ ؟ قَالُوا نَسْخَمُ وَجُوهَهُمَا وَيَخْزِيَانِ ، قَالَ : كَذَبْتُمْ إِنْ فِيهَا الرِّجْمُ (قَاتِلُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتَّبِعُوا) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فَجَاءُوا بِالتَّوْرَةِ وَجَاءُوا بِقَارِئٍ لَهُمْ أَعُورٌ يُقَالُ لَهُ ابْنُ صُورِيَا فَقَرَأَ حَتَّى إِذَا أَتَى إِلَى مَوْضِعٍ مِنْهَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْفَعْ يَدَكَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ لَوْحٌ (أَى آيَةِ الرِّجْمِ) فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ إِنْ فِيهَا الرِّجْمُ وَلَكِنَّا كُنَّا نَتَكَلَّمُهُ بَيْنَنَا ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَحَمَا فَلَقِدَ يَجُأُ عَلَيْهَا (بِنَحْنِي) يَقِيهَا الْحِجَارَةُ بِنَفْسِهِ » .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ) خَاطَبَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَمَا خَاطَبَهُ بِيَا أَيُّهَا الرِّسُولُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَمَوْضِعٍ آخَرَ بَعْدَهُ « يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » وَهَذَا الْخُطَابُ لِلتَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ وَتَأْدِيبِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعْلِيمِهِمْ أَنْ يَخَاطَبُوهُ بِوصفه كَمَا كَانَ يَفْعَلُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بِقَوْلِهِمْ (يَا رَسُولَ اللَّهِ) وَجَهِلَ هَذَا بَعْضُ الْأَعْرَابِ لِحُشُونَتِهِمْ وَمِذَاجَةِ فُطْرَتِهِمْ فَكَانُوا يَنْادُونَهُ (يَا مُحَمَّدُ) حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرِّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » فَكَفُوا عَنْ نِدَائِهِ بِاسْمِهِ .

أى لا تهتم أيها الرسول بهؤلاء المنافقين الذين يسارعون فى إظهار الكفر والتحيز إلى أعدائهم المؤمنين عند ما يرون الفرصة سانحة ، فالله يكفيك شرهم و يتيك ضرهم وينصرك عليهم وعلى من شايهم وناصرهم .

والتهنى عن الحزن وهو أمر طبعى وليس للانسان اختيار فيه يراد به النهى عن لوازمه التى يفعلها الناس مختارين من تذكر المصائب وتعتظم شأنها ، وبذا يتجدد الألم ويبعد أمد السأوى .

ثم بين أولئك المسارعين فى الكفر من المنافقين فقال :
(من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) أى لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من المنافقين الذين ادعوا الإيمان بالسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

(ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) الذين هادوا هم اليهود ، والمراد بالسماع سماع القبول والاعتقاد بصحة ما يقال ، والمراد بالكذب ما يقوله رؤسائهم فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى أحكام دينهم التى يتلاعبون فيها بأهوائهم .

أى إن هؤلاء القوم كثيروا الاستماع لكلام الرسول صوات الله عليه والإخبار عنه لأجل الكذب عيه بالتحريف واستنباط الشبهات ، فهم جواسيس بين المسلمين لأعدائهم ، يباغون الرؤساء أعداء الإسلام كل ما يققون عليه ليكون ما يفترون عليه من الكذب مقبلا لأنه مبنى على وقائع معينة ، يزسون فى روايتها وينقصون ، ويحرفون منها ما يحرفون : وقد جرت العادة بأن الكذب لا يجد له نفوقا بين الناس إلا ممن يشهد ويرى ، أما البعيد فيظهر اختلاق كذبه سريعا . ولهذا كانوا ينقلون تلك الأكاذيب لمن لم يأت النبى صلى الله عليه وسلم من الرؤساء وذوى الكيد ليسمعوا منه بأذنانهم إما كبرا وتمردا وإما خوفا على أنفسهم وهذا معنى قوله : سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، أى سماعون لأجلهم .

(يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أى يحرفون كلم التوراة من بعد وضعه

فى مواضعه إما تحريفا لفظيا بإبدال كلمة بكلمة أو بإخفائه وكتمانه أو بالزيادة فيه أو بالنقص منه ، وإما تحريفا معنويا بحمل اللفظ على غير ما وضع له .

(يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا) أى يقولون لمن أرسلوهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم وأرادوا أن يحابوها بعدم رجمهما ، إن أعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضا عن الرجم فخذوها وارضوا بها ، وإن حكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك ولا ترضوا به .

وقد سبق أن ذكرنا أنهم جاءوه فسألهم عن حد الزناة فى التوراة ، فقالوا : نفصحهم ويمجدون وجاءوا بالتوراة فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع فإذا هى آية الرجم ، فاعترفوا بصدق النبى صلى الله عليه وسلم وظهر كذبهم وعشهم بشريعتهم وكتائبهم .

(ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) أى ومن يرد الله أن يختبر فى دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله فلن تملك له أيها الرسول من الله شيئا من الهداية والرشد ، فهو لاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنه الله واختباره إياهم مقدار فسادهم ، فهم يقبلون الكذب دون الحق وهم محرفون كاتمون لأحكام كتابهم اتباعا لأهوائهم ومرضاة لرؤسائهم وذوى الجاه فيهم .

فلا تحزن بعد هذا على مسارعتهم فى الكفر ولا تطمع فى جذبهم إلى الإيمان ، فإنك لا تملك لأحد نفعا ، وإنما عليك البلاغ والبيان ، ولا تخف عاقبة نفاقهم فإنما العاقبة لمتعقبن من أهل الإيمان ، ولهم الخزي والهوان .

(أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أى إن أولئك الذين بلغت منهم الفتنه ذلك المبلغ هم الذين لم يرد الله تطهير قلوبهم من الكفر والنفاق ، لأن إرادته إنما تنعق بما اقتضته سننه العادلة فى نفوس البشر ، من أنها إذا دأبت على الباطل ومرنت على الكيد والشر وألفت الخلاف والضر تحيط بها خطيئتها ونطبق عليها

ظلمتها فلا يبقى لديها نور الحق منفذ ، وتصبح غير قابلة للاستبصار والاعتبار الذى جعله الله وسيلة للاتعاظ والهداية ، فهؤلاء الرؤساء من اليهود وأعوانهم لا تقبل طبايعهم سواها فلا تتعلق إرادته سبحانه بتطهيرهم وإلا كان ذلك خلافا لما اقتضته سننه ، وتبديلا لنظمه فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) خزى المنافقين فى الدنيا هتك أستارهم باطلاع الرسول على كذبهم وخوفهم من القتل ، وخزى اليهود فضيحتهم بظهور كذبهم فى كتمان نصوص كتابهم فى إيجاب الرجم وعبو الحق على باطلهم ، وقد صدق الوعيد على كل يهود الحجاز ، كما يصدق على من يبطنون الكفر والنفاق فى كل زمان ، وعذابهم فى الآخرة نجزم بحصوله ، ولا نعلم مقدار كنهه وحقيقة أمره .

(سماعون للكذب أكالون للسحت) أعاد الله وصفهم بكثرة السماع للكذب للتأكيد وتقرير المعنى وإفادة اهتمام المتكلم بأمره وبيان أن أمرهم كله مبنى على الكذب الذى هو شر الرذائل وأضر المفاصد، وهكذا شأن الأمم الذليلة تلوذ بالكذب وتدرأ به عن نفسها ما تتوقع من ضرر ربما يلحقها .

وكذلك انتشر بين أفرادها أكل السحت لأنها كانت تعيش بالحاجة والرشا فى الأحكام ففسدت بينها أمور المعاملات واستبدات الطمع بالفعة كذلك، وكان أخبار اليهود ورؤساؤهم عصر التنزيل كذابين أكالين للسحت من رشوة وغيرها من الدنئات كما هو دأب سائر الأمم عهد فسادها وأزمان انحطاطها .

(فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) أى فإن جاءوك متحايين إليك فانت تخير بين الحكم بينهم والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم فى بلادهم وإن تحاكموا إليهم . بل هم مخيرون يرجعون فى كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والموارث وسائر العقود إلا في بيع الخمر والخنزير فإنهم يقررون عليه ويمنعون من الزنا كالمسلمين فإنهم نهوا عنه ولا يرجعون ، إذ من شروط الرجم الإسلام .

(وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) أى وإن اخترت الإعراض عنهم ولم تحكم بينهم فلن يضروك شيئا من الضرر فالله حافظك من ضرهم .
(وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) أى وإن اخترت أن تحكم بينهم فاحكم بالعدل الذى أمرت به وهو ما تضمنه القرآن واشتملت عليه شريعة الإسلام .

(وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أى وكيف يحكمونك فى قضية كقضية الزانيين وعندهم التوراة وهى شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقتها إياها .

وخلاصة ذلك — أن أمرهم من أعجب العجب ، وما سبب إلا أنهم ليسوا مؤمنين بالتوراة إيماناً صحيحاً ولا هم مؤمنون بك إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما يرغب إليه شرع من الله أيضاً أيد به الأول أو نسخ له حكمه اقتضت ذلك .

ولكن هؤلاء تركوا حكم التوراة التى يدعون الإيمان بها لأنه لم يوافق أهواءهم وجاءوك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق أهواءهم ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يأت على وفق مرادهم .

وقد جاء فى سفر التثنية بعد بيان أن من تزوج عذراء فوجدها ثيباً ترجم عند باب بيت أبيها ، وإذا وجد رجل مضطجع مع امرأة زوج بعل يقتل الاثنين الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة فنزع الشر من إسرائيل ، وإذا كانت متاة عذراء مخطوبة

لرجل فوجدها رجل في المدينة فاضطجع معها فأخرجوها كليهما إلى باب المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك .

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا
عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ،
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرْمَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ،
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ
بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) .

تفسير المفردات

التوراة : الكتاب الذي أنزل على موسى ، والذين هادوا : هم اليهود ، والرَّبَّانِيُّونَ : هم المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الملك ، والأحبار : واحد هم حبر وهو العالم ، وبما استحفظوا من كتاب الله أى بما طلب إليهم حفظه منه ، وشهداء

أى رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به ، فقاء به تقفية : جعله يقفو أثره كما قال : « وَقَفَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّشْلِ » والفاسقون أى الخارجون من حظيرة الدين المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عجيب حال اليهود من تركهم حكم التوراة وهم يعلمونه ، وطبهم من النبى صلى الله عليه وسلم الحكم بينهم ورضاهم به إذا وافق أهواءهم وتركهم له إذا جاء على غير ما يريدون .

ذكر هنا أمر التوراة وأنها أنزلت هداية لبنى إسرائيل ثم أعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد ، وفى ذلك من العبرة أن الانتماء إلى الدين لا ينفع أهله إذا لم يقيموه ويهتدوا بهديه وأن إشار أهل الكتاب أهواءهم على هدى دينهم هو الذى عمهم عن نور القرآن والاهتداء به .

الإيضاح

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) أى إنا أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى وإرشاد للناس إلى الحق ونور وضياء بكشف به ما تشبه عيهم وأظلم ، وبهذا الهدى أخرج بنى إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم ، وبذلك النور أبصروا طريق الاستقلال فى أمر دينهم ودنياهم .

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) أى أنزلناها فانونا يحكم به النبيون الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين - موسى ومن بعده من أنبياء بنى إسرائيل إلى عيسى عليه السلام ، للذين هادوا أى لليهود خاصة ، لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة ، ولم يكن لداود وسليمان وعيسى شريعة دونها .

(والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله) أى ويحكم بها الربانيون

والأخبار في الأزمنة التي لم يكن فيها أنبياء معهم أو يحكمون مع وجودهم باذنهم بسبب ما أودعوه من الكتاب وأتمنوا عليه وطلب منهم أنبياءهم حفظه ، كالعهد الذي أخذته موسى بأمر الله على شيوخ بني إسرائيل بعد أن كتب التوراة أن يحفظوها ولا يحدوا عنها . ويروى عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال : أنا رباني هذه الأمة . وأطلق لقب حبر الأمة في الإسلام على ابن عباس رضى الله عنهما ، وأطلق لقب الرباني على علي المرتضى عليه الرحمة .

وقال ابن جرير الربانيون جمع رباني وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدير أمورهم والقيام بمصالحهم ، والأخبار جمع حبر وهو العالم المحكم للشيء اه .
(وكانوا عليه شهداء) أى وكان السلف الصالح منهم رقباء على الكتاب وعلى من تحدثه نفسه للعبث به كما فعل عبد الله بن سلام في مسألة الرجم ، لا كما فعل الخلف من كثرة بعض أحكامه اتباعا للهوى أو خوفا من أشرافهم إن أقاموا عليهم حدوده أو طمعا في صلاتهم إذا هم حابوهم .

و، كنتموه صفة النبي صلى الله عليه وسلم والبشارة به .
ثم خاطب الله تعالى رؤساء اليهود الذين كانوا زمن التنزيل لا يخافون الله في الكتاب والتبديل بعد أن قص سيرة السلف الصالح من بني إسرائيل لعلمهم يعتبرون ويرعون عن غيرهم فقال :

(فلا تحشوا الناس واخشون) أى إذا كان الحال كما ذكر أيها الأخبار ولا شك أنكم لا تتكرونه كما تفكرون غيره مما قصه الله على رسوله من سيرة أسلافكم - فلا تحشوا الناس فتكتموا ما عندكم من الكتاب خشية أحد أو طمعا في منفعة عاجلة منه ، واخشوني واقتدوا بمن كان قبلكم من الربانيين والأخبار واحفظوا التوراة ولا تعدلوا عن ذلك فإن النفع والضرر بيدى .

(ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) أى ولا تتركوا بيانها للناس والعمل بها لقاء منفعة دنيوية قليلة تأخذونها من الناس كرشوة أو جاه أو غيرها من الحظوظ العاجلة

التي تصدكم عن الاهتداء بآيات الله وتمنعكم عن الخير العظيم الذي تتناولونه من ربكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) أى وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله وأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود فى الزانيين المحصنين بالتحميم وكتمانهم الرجم وقضائهم فى بعض قتلاهم بدية كاملة وفى بعضها بنصف الدية ، والله قد سوى بين الجميع فى الحكم - فأولئك هم الكافرون الذين ستروا الحق الذى كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه وأظهروا لهم غيره وقضوا به .

فل الرازى نقلا عن عكرمة : إن الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله - إنما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله وإن كنه تارك له فلا يدخل تحت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال: الثلاث الآيات التى فى المائدة ومن لم يحكم بما أنزل الله الخ ليس فى الإسلام منها شىء هى فى الكفار ، وعن الشعبي أنه قال: الثلاث الآيات التى فى المائدة أولها فى هذه الأمة والثانية فى اليهود والثالثة فى النصارى . وخلاصة المعنى - ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به منكرا له كان كافرا لجحوده به واستخفافه بأمره .

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) أى إن الجروح ذوات قصاص يعتبر فى جزائها المساواة بقدر الاستطاعة .

وقد جاء فى التوراة فى الفصل الحادى والعشرين من سفر الخروج (وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويذا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برضا) .

وجاء فى الفصل الرابع والعشرين من سفر اللاويين (وإذا أمات أحد إنسانا

أنه يقتل ، ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس وإذا أحدث إنسان في قريبه عيبا فسكنا فعل كذلك يفعل به ، كسر بكسر وعين بعين وسن بسن ، كما أحدث عيبا في الإنسان كذلك يحدث فيه) .

(فمن تصدق به فهو كفارة له) أى فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص وعفا عن الجاني فهذا التصدق كفارة له ، يكفر الله بها ذنوبه ويعفو عنه كما عفا عن أخيه .

وهذا كقوله تعالى « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وروى عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من تصدق من جسده بشيء كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه ، ويقرب منه قوله صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كاذبي ضمهضم ؟ كان إذا خرج من بيته تصدق بعرضه على الناس » .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) أى إن كل من أعرض عما أنزل الله من القصاص المبني على قاعدة العدل والمساواة بين الناس وحكم بغيره فهو من الظالمين ، إذ العدول عن ذلك لا يكون إلا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر ونمص حق المفضل عليه وظلمه .

(وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة) أى وبعثنا عيسى بن مريم بعد هؤلاء النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعا طريقهم جاريا على هديهم مصدقا للتوراة التي تقدمته بقوله وعمله ، فشرية عيسى عليه السلام هي التوراة ، وقد نقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال : ما جئت لأتقض الناموس (شريعة التوراة) وإنما جئت لأتمم - أى لأزيد عليها ما شاء الله أن أزيد من الأحكام والمواظ ، ولكن النصارى نسخوها وتركوا العمل بها اتباعا لبولس .

(وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) أى وأعطيناه الإنجيل حال كونه مشتملا على الهدى ومنقذا من

الضلال فى العقائد والأعمال كالتوحيد والتنزيه النافى للوثنية التى هى مصدر الخرافات والأباطيل .

وعلى النور الذى يبصر به ضالاب الحق طريقه الموصل إليه ، وهو مصدق للتوراة التى تقدمته أى إنه مشتمل على النص بتصديقها زيادة على تصديق المسيح لها بقوله وعمله .

وقد وصف القرآن الإنجيل بمثل ما وصف به التوراة وبكونه مصدقا لها وجعله هدى وموعظة للمتقين ، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداه لجرصهم عليه وعنايتهم به .
والسر فى ذلك أن فيه أمرار الشريعة وبيان حكمتها والمقصد منها ومعرفة أن بعد هذه التوراة وهذا الإنجيل هداية أعم وأشمل وهى التى يجىء بها النبى الأخير (البَارَقْلَيْطُ) الأعظم .

(وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) أى وقلنا لهم ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الأحكام ، والمراد وأمرناهم بالعمل به ، فهو كقوله فى أهل التوراة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا » .

وخلاصة ذلك — زجرهم عن تحريف مافى الإنجيل وتغييره مثل ما فعل اليهود من إخفاء أحكام التوراة .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) أى المتمردون الخارجون عن حكمه .

والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على أحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلا بشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قات أو كثرت ، لا بما فى التوراة خاصة ، ويشهد لذلك حديث البخارى « أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها وأهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به » .

وقال الشهرستانى فى الملل والنحل (جميع بنى إسرائيل كانوا متعبدين بشريعة موسى عليه السلام مكلفين التزام أحكام التوراة .

والإنجيل النازل على عيسى عليه السلام لا يحتضن أحكاما ولا يستبطن
حلالا ولا حراما ولكنه رموز وأمثال ومواعظ وما سواها من الشرائع والأحكام
بحال على التوراة .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بِنُورِهِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَأَمْتَبِعُوا الْخَيْرَاتِ
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ
أَحْكُم بِنُورِهِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ
عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ
يَبْتَغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) .

شرح المفردات

المهيمن: على الشيء القائم على شئونه وله حق مراقبته وتولى رعايته ، والشرعة
والشريعة : مورد الماء من النهر ونحوه ، وكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة ،
ومن ذلك شريعة الإسلام لشروع أهلها فيها ، والمنهاج : السبيل والسنة ، والابتلاء :
الاختبار ، استبقوا ابتدروا وسارعوا ، أن يفتنوك أى يميلوا بك من الحق إلى الباطل .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه إنزال التوراة ثم الإنجيل على بنى إسرائيل وذكر ما أودعه فيهما من الهدى والنور وما ألزمهم به من إقامتهما وما أوعدهم به من العقاب على ترك الحكم بهما .

ذكر هنا إنزاله القرآن على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ومنزلته من الكتب قبله وأن الحكمة اقتضت تعدد الشرائع والمناهج لهداية البشر .

الإيضاح

(وأُنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه) أى وأُنزلنا إليك أيها الرسول الكتاب (القرآن الكريم) الذى أكلنا به الدين مشتملا على الحق مقرر له « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » مصدقا لما تقدمه من الكتب الإلهية كاللتوراة والإنجيل ، ومهيئنا وشهدا عليها بما بينه من حقيقة أمرها وما كان من حال من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وتحريف كثير مما بقى وتأويله والإعراض عن العمل به .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال (ومهيئنا عليه) يعنى أمينا عليه يحكم على ما كان قبله من الكتب .

(فاحكم بينهم بما أنزل الله) أى إذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله من الكتب الإلهية وهو أنه رقيب وشهيد عليها ، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام ، دون ما أنزله إليهم إذ شريعته ناسخة لشريعتهم .

(ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) أى ولا تتبع ما يريدون وهو الحكم بما يسهل عليهم ويخفف احتماله مائلا بذلك عما جاءك من الحق الذى لا شك فيه ولا ريب .

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أى لكل أمة منكم أيها الناس جعلنا شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها ، ومنهاجا وطريقا فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم وإصلاح سرائرهم .

من قبل أن الشرائع العملية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع وطبائع البشر واستعداداتهم وإن اتفق الرسل جميعا في أصل الدين وهو توحيد الله والإخلاص له في السر والعلن وإسلام الوجه له .

روى عن قتادة أنه قال في تفسيرها : أى سبيلا وسنة ، والسنن مختلفة ، للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء كي يعلم من يطيعه ممن يعصيه ولكن الدين الذى لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص الذى جاءت به الرسل ؛ وروى عنه أنه قال الدين واحد والشريعة مختلفة . ومن هذا يفهم أن الشريعة هى الأحكام العملية التى تختلف باختلاف الرسل وينسخ اللاحق منها السابق وأن الدين هو الأصول الثابتة التى لا تختلف باختلاف الأنبياء .

وهذا هو العرف الجارى الآن إذ يخصون الشريعة بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه إلى الحكام .

والخلاصة — أن الشريعة اسم للأحكام العملية ، وأنها أخص من كلمة (الدين) وتدخل في مسمى الدين من جهة أن العامل بها يدين لله تعالى بعمله ويخضع له ويتوجه إليه بمتبعيا مرضاته وثوابه بإذنه .

(ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة) أى ولو شاء تعالى أن يجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد تسيرون عليه وتعملون به بأن يخلقكم على استعداد واحد وأخلاق واحدة وطور واحد في معيشتكم فتصالحكم شريعة واحدة في كل الأزمان فتكونون كسائر أنواع المخلوقات التى يقف استعدادها عند مستوى معين كالطير أو كالنحل — لفعل ذلك إذ هو داخل تحت قدرته تعالى لا يستعصى عليه .

(ولكن ليياوكم فيما آتاكم) أى والسكن لم يشأ ذلك ، بل شاء أن يجعلكم نوعا ذا عقل وفكر واستعداد للفهم والعلم ، يرتقى فى أطوار الحياة بالتدريج وينخفض لسنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة فى كل أطواره وفى سائر جماعاته ؛ فكانت الشرائع فى أطوار الطفولة من نوع يغلب عليه المادة ، وفى طور التمييز يغلب عليه العواطف والوجدانات النفسية ، وفى طور الرشد واستقلال العقل ختمت الشرائع والمناهج بالدين المحمدى المبني على فتح باب الاجتهاد الفكرى ، وجعل أمره شورى فى القضاء والسياسة وأصول الاجتماع بين أولى العلم والرأى .

وإخلاصة — إنه سبحانه عاملنا معاملة المختبر لاستعدادنا فيما آتانا من المناهج والشرائع لتظهر حكمته فى تمييز نوعنا عن غيره من الأنواع التى تدب على وجه البسيطة ، بأن جمع لنا بين الحيوانية والملكية .

وإنك لو نظرت إلى سائر الشرائع ترى الشريعة اليهودية مبنية على الشدة ، وليس لأهلها فيها رأى ولا اجتهد إذ هى نزلت لقوم ألقوا الذل والاستعباد فوجب أخذهم بالشدة والصرامة ، وترى الشريعة النصرانية تأمر أهلها بأن يسلموا أمورهم للمتغلبين عليهم من أهل السلطة والحكم ويقبلوا كل ما يسامون به من ذل وخسف ويجمعوا عنايتهم بالأمور الروحية وتربية الوجدانات النفسية ، وترى الديانة الإسلامية قائمة على أساس الاستقلال والعقل جامعة بين مصالح الروح والجسد « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ولا يليق ذلك إلا بأمة بلغت سن الرشد العقلى والارتقاء الفكرى ، ومن ثم كانت أحكامها الدنيوية قليلة فى كتبها ، وفوض الأمر فيها إلى الاجتهاد ، إذ الراشد يفوض أمره إلى نفسه ، ومن ثم صارت صالحة لكل زمان ومكان ، إذ مدارها على الاجتهاد وطاعة أولى الأمر ، فمنع الاجتهاد فيها يبطل مزيته ويجعلها لا تصلح لجميع الأزمان ولا لجميع الأمكنة ، إذ أنك تعلم أن للزمان والمكان والأحوال من التشريع ما يوافقه ، انظر إلى الإمام الشافعى تجد أنه حين كان بالعراق وضع أسسا للتشريع والأحكام (المذهب القديم) فلما انتقل إلى مصر ورأى عادات

أهلها وأطوارهم غير كثيرا من تشريعه إلى ما يناسب الشعب الذى يعيش بين ظهرائيه (المذهب الجديد) وما سر هذا إلا ما علمت من خضوع التشريع للزمان والمكان .

(فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى إذا كان الأمر كما ذكر فسارعوا إلى ما هو خير لكم فى دينكم ودنياكم ، وابتدروا الخيرات وصالح الأعمال اتهازا للفرصة وإحرازا للفضل فالسابقون السابقون أولئك المقربون . وإنكم إلى الله دون غيره ترجعون جميعا فى الحياة الثانية فينبئكم عند الحساب بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا من أمور الدين ، ويجازى الحسن على قدر إحسانه والسيئ بإساءته فاجعلوا الشرائع سببا للتنافس فى الخيرات ، لا لإقامة الشحناء والعداوة بين الأجناس والعصبيات .

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) أى إنا أنزلنا إليك الكتاب فيه حكم الله ، وأنزلنا إليك فيه : أن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم بالاستماع لهم وقبول كلامهم ولو لمصلحة فى ذلك كتأليف قلوبهم وجذبهم إلى الإسلام ، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل ، واحذرهم أن يفتنوك وينزلوك عن بعض ما أنزل الله إليك لتحكم بغيره .

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وعبد الله ابن سوريا وشاس بن قيس من اليهود : اذهبوا بنا إلى محمد لعننا نقتنه عن دينه فاتوه فقالوا : يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فخصمهم إليك فنقتضى لنا عليهم وبؤمن لك ونصدقك ، فأبى ذلك وأنزل الله عز وجل فيهم . (وأن احكم بينهم بما أنزل الله - إلى قوله : لقوم يوقنون) اه . يريد أن الحكمة فى إنزال هذه الآية إقرار النبى على ما فعل والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله ، وعدم الانخداع لليهود .

(فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى فإن أعرضوا عن حكمك بعد تحاكمهم إليك ، فما ذاك إلا لأن الله يريد أن يعذبهم فى الحياة الدنيا قبل الآخرة ببعض ذنوبهم ، لأن استئقالم لأحكام التوراة وتحاكمهم إليك لعنك تتبع أهواءهم ، ومحاولتهم لفتنت عن بعض ما أنزل إليك - كل هذه أمارات على فساد الأخلاق وانحلال روابط الاجتماع ولا بد أن تكون نتيجتها وقوع العذاب بهم ، وقد حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم ما حل ، فقد أجل النبي صلى الله عليه وسلم بنى النضير عنها وقتل بنى قريظة .

(وإن كثيرا من الناس لفاسقون) أى متمردون فى الكفر مصرون عليه خارجون من الحدود والشرائع التى اختارها الله لعباده .
وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على عدم إذعانهم لما جاء به من الهدى والدين وإعراضهم عن ذلك النور الذى أنزل إليه .

(أأحكم الجاهلية يبغون ؟) أى أينولون عن قبول حكمك بما أنزل الله فيبغون حكم الجاهلية المبني على التحيز والهوى لجانب دون آخر وترجيح القوى على الضعيف .
روى « أن بنى النضير تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة كانت بينهم وبين بنى قريظة وطلب بعضهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل وجعل دية القرطى ضعف دية النضيرى لمكان القوة والضعف فقال عليه السلام : القتلى بؤاء (سواء) فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت الآية » .

وخلاصة ذلك — توبيخهم والتعجيب من حالهم بأنهم أهل كتاب وعلم ومع ذلك كانوا يبغون حكم الجاهلية التى هى محض الجهل وصریح الهوى .

(ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) أى لا أحد أحسن حكما من حكم الله لقوم يوقنون بدينه ويذعنون لشرعه ، لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق

من الحاكم ، والقبول والإذعان من المحكوم له والمحكوم عليه ، وبهذا يحصل التفاضل بين الشرائع الإلهية والقوانين البشرية .

والتلخيص — إن مما ينبغي التعجب منه من أحوالهم أنهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ويؤثرونه على حكم الله العادل ، وفي الأول تفضيل القوى على الضعيف واستدلاله واستئصال شأفته ، وفي الثاني العدل الذي يستقيم به أمر الخلق ، وبه يستتب الأمن والرضا والطمأنينة بين الناس ويشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)
فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) .

شرح المفردات

الولاية : ولاية التناصر والمخالفة على المؤمنين ، في قلوبهم مرض أى إن إيمانهم معتل غير صحيح ، الدائرة : ما يدور به الزمان من المصائب والندامى التى تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بجافيتها ، والفَتْح : القضاء ، وهو يكون بفتح البلاد وبغير ذلك ، وحبطت أى بطلت أعمالهم التى كانوا يتكفون بها نفانا كالصلاة والصيام والجهاد معكم ففسدوا أجرها وثوابها .

المعنى الجملى

أخرج ابن أبى شعبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال : « جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لى موالى من اليهود كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبى : إنى رجل أخاف الدوائر لأبرأ من موالاة موالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبى (يا أبا الحباب أرايت الذى نقست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه) قال إذن أقبل فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى . . . إلى قوله والله يعصمك من الناس » .

وروى أرباب السير : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام : قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه أحدا ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يثول إليه أمره وأمر أعدائه ، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن ، ومنهم من دخل معه فى الظاهر وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المنافقون . وقد عامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه به ، فصالح يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة - بنى قَيْنُقَاعَ وبنى النضير وبنى قريظة - فخاربتهم بنو قَيْنُقَاعَ بعد بدر وأظهروا البغى والحسد ، ثم نقض العهد بنو النضير بعد ذلك بستة أشهر ، ثم نقض بنو النضير العهد لما خرج إلى غزوة الخندق وكانوا من أشد اليهود عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حارب كل طائفة وأظهره الله عليها وكان نصارى العرب والروم حربا عليه كاليهود .

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الخ) أى لا يوالى أفراد أو جماعات من المسلمين أولئك اليهود والنصارى المعاندين للنبي والمؤمنين ، ويعاهدونهم على التناصر من دون المؤمنين رجاء أن يحتاجوا إلى نصرهم إذا خذل المسلمون وغلبوا على أمرهم .

قال ابن جرير : إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله ، وأخبر أن من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله فهو منهم في التحزب على الله ورسوله والمؤمنين ، وأن الله ورسوله منه بريثان . . . إلى أن قال غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالى يهود أو نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر لأن الآية التى بعد هذه تدل على ذلك اهـ .

(بعضهم أولياء بعض) أى إن اليهود بعضهم أنصار بعض ، والنصارى بعضهم أنصار بعض ، وهذه العبارة كالعلة والسبب للنهى ، إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان فصار الجميع حرا بالرسول ومن معه من المؤمنين .

(ومن يتولهم منهم فإنه منهم) أى ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم أعداء لكم فإنه فى الحقيقة منهم لامنكم لأنه معهم عليكم .

قال ابن جرير فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم ، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض ، وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى من خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه اهـ .

ومن هذا تعلم أنه إذا وقعت الموالاة والمخالفة والمناصرة بين المختلفين فى الدين

لمصالح دنيوية لا تدخل في النهى الذى فى الآية ، كما إذا حالف المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها ، فمثل هذا لا يكون محظورا . ثم ذكر العلة والسبب فى الوعيد السابق فقال :

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أى إن من يوالى أعداء المؤمنين وينصرهم أو يستنصر بهم فهو ظالم بوضعه الولاية فى غير موضعها ، والله لا يهديه لخير ولا يرشده إلى حق .

(فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فىهم) أى فترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم ولم يصل إلى مرتبة اليقين كعبد الله بن أبى وغيره من المنافقين ، يمتنون إلى اليهود بالولاء والعهد ويسارعون فى هذه السبيل التى سلكوها ، وكلما سنحت لهم الفرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ليزيد تمكنا وثباتا .

(يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) أى يقولون بأنستهم نحن نخشى أن تقع بنا مصيبة من مصائب الدهر فنحتاج إلى نصرتهم لنا ، فعلينا أن نتخذ لنا أيادى عندهم فى السراء نتنفع بها إذا مستنا الضراء .

وخلاصة ذلك — إنهم يخشون أن تدول الدولة لليهود أو المشركين على المؤمنين فيحل بهم العقاب ، لأنهم فى شك من نصر الله لنبيه وإظهار دينه على الدين كله ، إذ لم يؤمنوا بنبوته ولا بصدقها ، وهكذا شأن المنافقين فى كل زمان ومكان ، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يدا عند دولة قوية يلجأ إليها إذا أصابها دائرة ، فتغلغل نفوذ هذه الدول فى أحشاء هذه الدولة وضعف استقلالها فى بلادها بعملهم ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

(فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) هذا رد من الله تعالى على المنافقين عصر التنزيل وقطع لأطماعهم وبشرى للمؤمنين بحصول ما يمتنون أى فاعل الله بفضلته وصدق ما وعده رسوله يأتى بالفتح والفصل بين المؤمنين ومن يعاديهم من اليهود والنصارى ، أو بأمر من عنده فى هؤلاء

المنافقين كفضيحتهم أو الإيقاع بهم ، فيصبحوا نادمين على ما كتموه وأضمره
في أنفسهم من اتخاذ الأولياء على المؤمنين ، وتوقع الدوائر عليهم .

والفتح إما فتح مكة الذي كان به ظهور الإسلام والثقة بقوته وإنجاز الله وعده
لرسوله ، وإما فتح بلاد اليهود في الحجاز كخيبر وغيرها ، والأمر إما الإيقاع باليهود
وإجلاؤهم عن موطنهم وإخراجهم من حصونهم وصياصيتهم ، إما القهر والإيجاف
عليهم بالخيال والركاب كبنى قريظة ، وإما إلقاء الرعب في قلوبهم حتى يعطوا بأيديهم
كبنى النضير ، وإما ضرب الجزية على أهل الكتاب فينقطع أمل المنافقين
ويندمون على ما كان من إسرارهم بالولاء لهم .

(ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟)
أى يقول بعض المؤمنين متعجبين من حال المنافقين إذ أقسموا بأغظ الأيمان لهم إنهم
معكم وإنهم معاضدكم على أعدائكم اليهود ، فلما حل باليهود ماحلّ أظهروا ما كانوا
يسرونه من موالاتهم وممالأتهم على المؤمنين كما قال في سورة براءة « وَيَحْدِفُونَ بِاللَّهِ
إِنَّهُمْ لِمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ » أى فهم لفرقهم وخوفهم
يظهرون الإسلام تقية .

(حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) أى ويقول المؤمنون حبطت أعمالهم
التي كانوا يتكفونها نفاقا كالصلاة والصوم والجهاد معنا ليقنعونا بأنهم منا ، فخسروا
بذلك ما كانوا يرجون لها من أجر وثواب لو صلحت حالهم وقوى إيمانهم .

وفى هاتين الآيتين إخبار بالغيب وقد صدق الله وعده وخذل الكافرين وفضح
المنافقين والعاقبة للمتقين ، ولما أتى لهم أن يعتبروا بمثل هذا ؟ « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَلَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ
بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١٥٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يتولى الكافرين من دون الله يعد منهم ، وأن
الذين يسارعون فيهم من مرضى القلوب مرتدون بتوليهم إياهم ، فإن أخفوا ذلك
فإظهارهم للإيمان نفاق .

بين هنا حقيقة دعمها بخبر من الغيب يظهره الزمن المستقبل ، فالحقيقة هى أن
المنافقين ومرضى القلوب لا غناء فيهم ولا يعتد بهم فى نصر الدين وإقامة الحق ، والله
إنما يقيم دينه بصادق الإيمان الذين يحبهم فيزيدهم رسوخاً فى الحق وقوة على إقامته ،
ويحبونه فيؤثرون ما يحبه من إقامة الحق والعدل على سائر ما يحبون من مال ومتاع
وأهل وولد .

وخبر الغيب أنه سيرتد بعض الذين آمنوا عن الإسلام جهراً ولا يضره ذلك
لأن الله تعالى يسخر من ينصره ويحفظه .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ
لَوْمَةَ لَائِمٍ) .

روى ابن جرير عن قتادة قال : أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتد مرتدون
من الناس ، فلما قبض الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ارتد عامة العرب عن الإسلام
إلا ثلاثة مساجد - أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من عبد القيس - قال :
المرتدون نصلى ولا نزكى ، والله لا تنصب أموالنا ، فكلّم أبو بكر فى ذلك فقليل له :

إنهم لو قد فقهوا لهذا أعطوها وزادوها فقال : لا والله ، لا أفرق بين شيء جمع الله بينه ولو منعوا عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه ، فبعث الله عصابة مع أبي بكر فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل وحرق بالنيران أناسا ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة فقاتلهم حتى أقروا بالماعون (الزكاة) صغرة (واحد هم صاغر وهو المهين الذليل) أقياء (واحد هم قىء وهو الذليل الضعيف) فأتته وفود العرب فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مجلية فاختراروا الخطة الخزية وكانت أهون عليهم أن يستعدوا أن قتالهم في النار ، وأن قتل المؤمنين في الجنة ، وأن ما أصابوا من المسلمين من مال ردوه عليهم وما أصاب المسجون لهم من مال فهو لهم حلال اه .

وعلى هذا فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ، قاله قتادة والضحاك ، ورجح ابن جرير أن الآية نزلت في قوم أبي موسى الأشعري من أهل اليمن لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : - يعني قوم أبي موسى - وإن لم يكونوا قاتلوا المرتدين مع أبي بكر لأن الله وعد بأن يأتي بخير من المرتدين بدلا منهم ولم يقل إنهم يقاتلون المرتدين ويكفي في صدق الوعد أن يقاتلوا ولو غير المرتدين .

وقد ارتد كثير من القبائل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ، فقد ارتدت إحدى عشرة فرقة منها ثلاث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهم :

(١) بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسي وكان كاهنا ، تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذب النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن ، فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فسر به المسجون ، وقبض عليه السلام من الغد .

(٢) بنو حنيفة قوم مسيئة الكذاب ، وقد تنبأ مسيئة وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مسيئة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك : أما بعد

فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض
ولكن قریشا قوم يعتدون ، فكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن
الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب (السلام على من اتبع الهدى ،
أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وكان ذلك سنة
عشر ، وحاربه أبو بكر ، وقتله وحشى قاتل حمزة وكان يقول : قتلت في جاهليتي خير
الناس وفي إسلامي شر الناس .

(٣) بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد ، وقد تنبأ فبعث إليه أبو بكر
خالد بن الوليد فانهزم وهرب إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه .
وارتدت سبع في عهد أبي بكر وهم :

- (١) فزارة قوم عيينة بن حصن .
- (٢) غطفان قوم قُرّة بن سلمة القشيري .
- (٣) بنو سليم قوم الفجاءة بن عبدياليل .
- (٤) بنو يربوع قوم مالك بن نويرة .
- (٥) بعض بني تميم وزعيمته سجاح بنت المنذر الكاهنة ، وقد تنبأت وزوجت نفسها
من مسيلة ولها قصص طويلة في التاريخ ، وصح أنها أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها .
- (٦) كندة قوم الأشعث بن قيس .

(٧) بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطيم بن زيد ، وقد كفى الله المؤمنين
شرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه ، وارتدت قبيلة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه
وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم ، تنصر جبلة ولحق بالشام ومات مرتداً . ويروى أن عمر
كتب إلى أحوار الشام لما لحق بهم كتابا جاء فيه : إن جبلة ورد إلى في سراة قومه
فأسلم فأكرمه ثم سار إلى مكة فطاف فوطىء إزاره رجل من بني فزارة فطمه جبلة
فهشم أنفه وكسر ثناياه فاستعدى الفزارى على جبلة إلى فحكمت إما بالعفو
وإما بالقصاص ، فقال : أنتقص مني وأنا ملك وهو سوقة ، فقلت شملك وإياه الإسلام ،

فما تفضله إلا بالعافية ، فسأل جبلة التأخير إلى الغد ، فلما كان من الليل ركب مع بنى عمه ولحق بالشام مرتدا . وروى أنه ندم على ما فعل وأنشد :

تنصرت بعد الحق عارا للظمة ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر
فأدركني منها لجأج حمية فبعت لها العين الصحيحة بالعمور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتنى صبرت على القول الذي قاله عمر

وهؤلاء المرتدون لم يقاتلهم أحد ، فإن أبا بكر هو الذي قاتل جماهير المرتدين بمن معه من المهاجرين والأنصار وقد وصف الله هؤلاء المؤمنين بست صفات .

(١) إنه تعالى يحبهم وحبه تعالى وبغضه شأن من شأنه لا نبعث عن كنهه ولا عن كيفيته .

(٢) إنهم يحبون الله تعالى وحب المؤمنين لله جاء في غير موضع من القرآن كقوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ » وفي حديث أنس في الصحيحين « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن ياقى في النار » .

(٣ ، ٤) الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين وهما بمعنى ما جاء في قوله تعالى : « أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ » .

(٥) الجهاد في سبيل الله ، وسبيل الله طريق الحق والخير الموصلة إلى مرضاته تعالى ، ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الحق ، وهو من أكبر آيات المؤمنين الصادقين .

(٦) كونهم لا يخافون لومة لائم ، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين يخافون لوم أوليائهم من اليهود لهم إذا هم قاتلوا مع المؤمنين ، إذ هم لا يرغبون في جزاء أو ثناء من الناس بل يعملون العمل لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى ذلك الذى تقدم من الصفات فضل الله يعطيه من يشاء من عباده وبه يمتازون عن غيرهم ، وهذه المشيئة وفق السنن التى أقام بها أمر النظام فى خلقه ، فجعل من الناس الكسب والعمل نفسيا كان أو بدنيا ، ومنه سبحانه آلات الكسب والقوى ما بين بدنية وعقلية حسية ومعنوية ، كما أن منه التوفيق والمداية واللفظ والمعونة .

(والله ذو الفضل العظيم) فعائنا ألا نغفل عن فضله ومنته ، ولا عما يقتضيه ذلك من الشكر له والإجابة إليه ، والإخبار والعبادة له .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فى الآيات المتقدمة عن مولاة الكافرين ، أمر فى هذه الآية بموالاة من تحب موالاتهم وهم الله ورسوله والمؤمنون .

الايضاح

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) أى لاولى لكم أيها المؤمنون ولا ناصر ينصركم إلا الله ورسوله والمؤمنون الصادقون الذين اتصفوا بتلك الصفات الآتية بعد . وفى هذا تعريض بمن ينصر مرضى القلوب فى توليهم الكفار من دون الله . ولما كانت كلمة (المؤمنين) تشمل كل من أسلم ولو ظاهرا بين المراد منها بقوله : (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) قال فى الأساس : العرب تسمى من آمن بالله ولم يعبد الأوثان راكعا ، وقال أبو مسلم المراد بالركوع الخضوع

أى إن المؤمنين الذين يقومون بحق الولاية والنصرة لكم هم الذين يقيمون الصلاة ويؤدون حق الأداء باشتغالها على الآداب الظاهرة والباطنة ، ويعطون الزكاة مستحقها وهم خاضعون لأوامر الله مع طيب نفس وهذوء بال لاخوفا ولا رياء ولا سمعة ، دون المنافقين الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ويأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها ؛ فإذا هم قاموا إليها قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

(ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) أى ومن يتولهم الله بالنصرة والولاية والرسول والذين آمنوا بالتبع لولايته فهم الغالبون والله ناصرهم ، ومن يتول الله يتول الإيمان به والتوكل عليه ويتول الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزهم والاستنصار لهم دون أعدائهم فإنهم هم الغالبون ولا يغلب من يتولاهم لأنهم حزب الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ

قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يُنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٣) .

شرح المفردات

نعم منه كذا: إذا أنكره عليه وعابه به بالقول أو الفعل، والمثوبة: من تاب إليه إذا رجع، ويراد به الجزاء والثواب، والطاغوت: من الطغيان، وهو مجاوزة الحد المشروع وهو يشمل كل من أطاعوه في معصية الله تعالى، والسحت: الدنىء من المحرمات .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دون الله وبين العلة فى ذلك فأرشد إلى أن بعضهم أولياء بعض ولا يوالى المؤمنين منهم أحد، ولا يوالىهم ممن يدعون الإيمان إلا مرضى القلوب والمنافقون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر . أعاد النهى هنا عن اتخاذ الكفار عامة أولياء مع بيان الوصف الذى لأجله كان النهى، وهو إيذاؤهم للمؤمنين بجميع ضروب الإيذاء، ومقاومتهم دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء) أى لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء وأُنزلت عليهم الكتب من قبل بعث نبينا صلى الله عليه وسلم ومن قبل نزول كتابنا - أولياء وأنصارا حلفاء فإنهم لا يألوكم خبالا وإن أظهروا لكم

مودة وصداقة : ذلك لأنهم اتخذوا هذا الدين هزوا ولعبا فكان أحدهم يظهر الإيمان للمؤمنين وهو على كفره مقيم و بعد السير من الزمن يظهر الكفر بلسانه بعد أن كان يبدى الإيمان قولاً وهو مستبطن للكفر تلاعباً بالدين واستهزاء به كما قال تعالى عنهم « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » .

وكذلك نهى الله عن موالاته جميع المشركين ، لأن موالاته المسلمين لهم بعد أن أظهرهم الله عليهم بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا - تكون قوة لهم وإقراراً على شركهم الذى جاء الإسلام لمحوه من جزيرة العرب .

وقد نهج الإسلام مع أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركى العرب فأباح أكل طعامهم ونكاح نسائهم وشرع قبول الجزية منهم وإقرارهم على دينهم . وخصهم هنا بقلب أهل الكتاب ولقب المشركين بالكفار ، وفي آيات أخرى بالمشركين والذين أشركوا لأنهم لوثنيتهم عريقون في الشرك والكفر أصلاء فيه ، أما أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضاً وليس من أصل دينهم .

(واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى وخافوا الله أيها المؤمنون في موالاته هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً حتى لا يضيع الغرض منها وتكون وهناً لكم ونصراً لهم - إن كنتم صادقين الإيمان تحفظون كرامته وتجتنبون مهائنه وتصدقون بالجزاء والوعيد على معصيته تعالى .

(وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً) أى وإذا أذن مؤذنكم داعياً إلى الصلاة سخر من دعوتكم إليها من نهيتهم عن ولايتهم من أهل الكتاب والمشركين ، واتخذوها هزوا ولعباً .

(ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) أى ذلك الفعل الذى يفعلونه وهو الهزؤ والسخرية

إنما كان لجأهم بحقيقة الأديان وما أوجب فيها من تعظيم الله والثناء عليه بما هو أهله ولو كان عندهم عقل لخشعت قلوبهم كلما سمعوا المؤذن يكبر الله تعالى ويمجده بصوته الندى ويدعو إلى الصلاة له والفلاح بمناجاته وذكره ، فهو ذكر مؤثر في النفوس لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة في إرسال الشرائع ويؤمن بالله العلي الكبير .
(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكرم فاسقون ؟) أى قل يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى هل تعييبون علينا من شيء وتكرهوننا لأجله ، إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده وإثبات صفات الكمال له ، وإيماننا بما أنزل إلينا وبما أنزل من قبل على رسله ، لقلة إنصافكم ، ولأن أكرم فاسقون خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح وليس لكم من الدين إلا العصبية الجنسية والتقاليد الباطلة .

والخلاصة — إنه ما عندنا سوى ذلك ، وهذا مما لا يعاب ولا ينقم ، بل يمدح صاحبه ويكرم ، لكنكم لفسقكم وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عتبم الحسن من غيركم ورضيتم بالقبيح من أنفسكم .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع في جماعة فسألوه عن يؤمن به من الرسل ؟ فقال : (أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا لا تؤمن بمن آمن به فأنزل الله فيهم (قل يا أهل الكتاب ... الخ) » .

وفى قوله : (وأن أكرم فاسقون) دقة في الأحكام على الأمم والشعوب ، إذ هو يحكم على الكثير أو الأكثر وما عمم إلا استثنى وقد كان في أهل الكتاب ناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام عند ما عرفوا حقيقة أمره وتجلي لهم صدق الداعي إليه

(قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) استعمال المثوبة في الجزاء الحسن أكثر من استعمالها في الجزاء السيئ ، وقيل إن استعمالها في الجزاء السيئ من باب التهمك والازدراء .

أى هل أنبئكم أيها المستهزون بديننا وأذاننا بما هو شر من عملكم هذا جزاء وثوابا عند الله .

وهذا السؤال يستدعى سؤالاً منهم عن ذلك الذى هو شر (ما هو) فأجابهم بقوله (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) من لعنه الله أى جزاء من لعنه على حد قوله تعالى : « وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى » أى ولكن البر بر من اتقى أى إن الذى هو شر من ذلك ثواباً وجزاء جزاء من لعنه الله وغضب عليه الخ .

وفى هذا انتقال بهم من تبكيت لهم بإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما ذكر - إلى ما هو أشد منه تبكيتاً وتشنيعاً عليهم ، ذلك هو التذكير بسوء حال آبائهم مع أنبيائهم وما كان من جزاء الله إياهم على فسقهم وتمردهم بأشد ما جازى به الفاسقين الذين ظالموا أنفسهم - من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت .

أما اللعن فقد ذكر فى عدة مواضع فى القرآن الكريم مع بيان أسبابه ، والغضب الإلهى يستلزم اللعنة واللعنة تلزمه ، إذ هى منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه .

وأما جعله منهم قردة وخنازير فقد تقدم فى سورة البقرة « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » وسيأتى فى سورة الأعراف « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » وجمهرة العلماء على أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير على الحقيقة : وانقرضوا لأن المسوخ

لا يكون له نسل ، ونقل ابن جرير عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم يسخوا
 قرده ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كما ضرب المثل بقوله « كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا »
 (أولئك شرمكانا وأضل عن سواء السبيل) أى إن أولئك الذين اتصفوا
 بما ذكر من الخاى وشنيع الأمور شرمكانا إذ لا مكان لهم فى الآخرة إلا النار
 وأضل عن سواء الطريق ووسطه الذى لا إفراط فيه ولا تفريط .

ومثل هؤلاء لا يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين وبصلاتهم وأذانهم
 إلا الجهل وعمى البصيرة .

(وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) أى وإذا
 جاءكم المنافقون من اليهود قالوا للرسول واسمكم إننا آمنا بالرسول وما أنزل عليه ،
 وحالهم الواقعة منهم أنهم دخلوا عليكم وهم مقيمون على الكفر والضلال وخرجوا
 وهم كذلك ، فخالهم عند خروجهم كخالهم عند دخولهم لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول
 وما نزل من الحق ؟ ولكنهم قوم دأبهم الخداع والنفاق كما جاء فى سورة البقرة :
 « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ
 بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ؟ » الآية

(والله أعلم بما يكتمون) حين دخولهم من قصد تسقط الأخبار والتوسل إلى ذلك
 بالنفاق والخداع وحين خروجهم من الكيد والمكر والكذب .

وفى قوله : وهم قد خرجوا به تأكيد لكونهم حين الخروج كما هم حين الدخول ،
 واحتيج إليه لجيئه على خلاف المعروف لأن من كان يجالس الرسول صلى الله عليه
 وسلم وأصحابه يسمع منه العلم والحكمة ، ويرى من أحاسن أخلاقه ما يؤثر
 فى القلوب ويلين قاسيها - يرجع عن سوء عقيدته ، وتصفو نفسه من كدورتها إلا إذا
 كان متعننا مخادعا ، فإن الذكرى لا تنفعه ، والعظات والزواجر لا تؤثر فيه .

وقد كان الرجل يحىء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يريد قتله حتى إذا رآه وسمع

كلامه انجابت عن قلبه ظلمات الكفر والفسوق وآمن به وأحبه ، وما شذ هؤلاء إلا لسوء نيّتهم وفساد طريقتهم ، وذلك ما صرف قلوبهم عن التذكّر والاعتبار ووجه همّهم إلى الكيد والخداع ، فلم يكن لديهم عقل يعي ولا يفقه مغزى الحكم والآداب . (وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت) أى وترى أيها الرسول كثيرا من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينك هزوا ولعبا يسارعون في الظلم والعدوان وتجاوز الحدود التي ضربها الله للناس ، وفي أكل السحت وكل ما يعود على فاعله بالضرر في الدين والدنيا ، فهم غارقون في الإثم والعدوان ، فكما قدروا عليهما ابتدروهما ولم يتأخروا عن ارتكابهما .

(لبئس ما كانوا يعملون) أى والله ما أقبح هذا العمل الذي يعمله هؤلاء من مسارعتهم في كل ما يفسد الأخلاق ويدنس النفوس ويقوض نظم المجتمع ، وويل للأمة التي يعيش فيها أمثال هؤلاء ، فهلا نهتهم وزجرتهم عن أفعالهم ؟ ولم لم يقم أحد من علمائها وزهادها وعبادها بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر قبل أن يستفحل الشر ويم الضر ولا زاجر ولا وازع ؟ وإلى هذا أشار بقوله :

(لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) قال في الكشف : لا يسمى العامل صانعا ولا العمل صناعة حتى يتمكن فيه العامل ويتدرب وينسب إليه وفاعل المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها ، وأما الذي ينهيه فلا شهوة معه في فعل غيره ، فإذا فرط في الإنكار على المعصية كان أشد إثمًا وأعظم جرما من الفاعل لها .

أى هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون فيما ذكر من المعاصي - أئمتهم في التربية والسياسة وعلماء الدين من الأحبار والرهبان ، لبئس ما كانوا يصنعون من الرضى بهذه الأوزار والخطايا ، وتركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

روى عن ابن عباس أنه قال : مافى القرآن أشد توبيخا من هذه الآية - يريد بذلك أنها حجة على العلماء إذا هم قصروا في الهداية والإرشاد ، وتركوا النهي عن

الشُرور والآثام التى تفسد نظم الحياة للفرد والمجتمع ، فحق على العلماء والحكام أن يعتبروا بهذا الذمى على اليهود ساسة وعلماء ومربين فيزدجروا ويعلموا أن هذه موعظة وذكرى لهم إن نعتت الذكرى .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ أَنْ تَخْرُجُوا فِي الْحَرْبِ أَطْفَاءً هَا اللَّهُ ، وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) .

شرح المفردات

للجنة معان عدة : الجارحة والنعمة ، تقول لفلان عندي يد أشكره عليها كما قال تعالى : « أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » أى ذوى القوة والعقول ، والملك كما يقال هذه الضيعة فى يد فلان أى ملكه وقال تعالى : « الَّذِى بِيَدِهِ عَقْدَةُ النَّكَاحِ » أى يملك ذلك ، وغلت أيديهم أى أمسكت وانقبضت عن العطاء ، يدها مبسوطتان أى هو كثير العطاء ، والحرب : ضد السلم فهى تصدق بالإخلال بالأمن والسلب والنهب ولو بغير قتل ، وبتبهييج الفتن والإغراء بالقتل ، وإقامة التوراة : العمل بما فيها على أتم الوجوه سواء فى ذلك عمل النفس بالإيمان والإذعان ، وعمل الجوارح والقوى البدنية ؛

وقوله : لا كلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم أى لوسع الله عليهم موارد الرزق ،
والمقتصدة المعتدلة فى أمر الدين فلا تغلو بالإفراط ولا تهمل بالتقصير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة بعض مخازيهم من مسارعتهم فى الإنهم
والعدوان وأكل السحت إلى نحو أولئك مما اختل به نظام الأفراد والجماعات
وأصبحوا قوماً أنانية ، همه كل واحد منهم جمع المال واكتسابه على أى صورة كانت
وبأى وجه جمع ، وقد أثر هذا فى أخلاقهم وأعمالهم أشد الأثر تشهد بذلك كتبهم ودينهم .
ذكر هنا أفضع الخازى وأقبحها بجرأتهم على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من
صفته وإنكارهم جميل أياديه عندهم وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم جرمهم
توبيخاً لهم وتعريفاً لنبيه صلى الله عليه وسلم قديم جهلهم واحتجاجاً له بأنه مبعوث
ورسول إذ أخبر بخفى علومهم ومكنون أخبارهم التى لا يعلمها إلا أخبارهم دون غيرهم
من اليهود .

روى ابن إسحق والطبرانى عن ابن عباس قال « قال رجل من اليهود يقال له
النباش بن قيس للنبي صلى الله عليه وسلم : إن ربك بخيل لا ينفق فأنزل الله (وقالت
اليهود ...) الآية » وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنها نزلت فى فئحاص رأس يهود
بنى قينقاع . وروى ابن جرير عن عكرمة مثله ، وروى عن مجاهد أنهم قالوا : لقد
يمجدنا الله يا بنى إسرائيل حتى جعل يده إلى نحركم - يريدون أنه ضيق عليهم الرزق .
وروى عن ابن عباس أنه قال : ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، لكنهم يقولون
إنه بخيل أمسك ما عنده ، تعالى ربنا عما يقول الظالمون .

الإيضاح

(وقالت اليهود يد الله مغلولة) أى قال ذلك بعض منهم ونسبه إلى الأمة بناء
على التكافل العام بين أفرادها ، وكونها كالشخص الواحد ، وأن الناس فى كل زمان

يعززون إلى الأمة ما يسمعون من بعض أفرادها وقد جرت سنة القرآن أن ينسب إلى المتأخرين ما قاله أو فعله سلفهم منذ قرون .

ولا عجب في صدور هذا القول من بعض الأشخاص منهم فإننا نرى من المساميين في عصرنا مثله في الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق وفي إبان المصائب .

(غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) هذا دعاء عليهم بالبخل وانقباض الأيدي عن العطاء والإمسك عن الإنفاق في سبيل البر والخير ، وما زالوا أبخل الأمم فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً إلا إذا كان يرى أن له من ورائه رجلاً كما دعا عليهم بالطرد والابعاد من رحمته وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين .

وقيل إن المراد بغل الأيدي ربطها إلى الأعناق بالأغلال في الدنيا أو في النار أو فيهما ، فقد نقل عن الحسن البصرى أنه قال : يغفلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم ، وقال في تفسير اللعنة : عذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار .

ثم رد الله عليهم ما قالوه وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء وأن كل مافي العالم من خير هو سَجَلٌ من ذلك الجود فقال :

(بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) أى بل هو الجواد المتصرف على وفق الحكمة وسننه في الاجتماع .

ونقتير الرزق على بعض العباد لا ينافي سعة الجود وسريانه في كل الوجود ، فإن له سبحانه الإرادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق على حسب السنن التي أقام بها نظام الخلق .

وعبر عن سعة الجود بيسط اليدين ، لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبالغ في العطاء جهد استطاعته يعطى بكلتا يديه كما قال الأعشى يمدح جواداً :

يداك يدا جود ، فكف مفيدة وكف إذا ما ضُن بالزاد تنفق

(وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أى إن هذا الذى أنزلناه عليك أيها النبي من خفى أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك ومن أحوال سلفهم وشئون كتبهم وحقائق تاريخهم - هو من أعظم الأدلة على نبوتك وكان ينبغى أن يجذبهم إلى الإيمان بك ، إذ لولا النبوة والوحى ما علمت من هذا شيئا ، فلا تعرف الماضى لأنك أمة لم تقرأ الكتب ولا تعرف الحاضر لأنه من مكرهم الخفى وكيدهم السرى - لكنهم لطغيانهم وتجاوزهم الحدود فى الكفر والحسد للعرب لم يجذبهم ذلك إلى الإيمان ولم يقرب إلا قليلا منهم ، ووالله ليزیدن ذلك كثيرا منهم طغيانا فى بغضك وعداوتك وكفرا بما جئت به ، وقال قتادة حملهم حسد محمد صلى الله عليه وسلم والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه .

(وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) أى ألقينا بين اليهود والنصارى العداوة والبغضاء فهى لا تنقطع أبدا وهى على أشدها الآن فى روسيا وألمانيا وأقلها فى إنجلترا وفرنسا .

واليهود مع كونهم المديرين لأعظم الأعمال المالية ولهم النفوذ والتأثير فى السياسة وسائر شئون الاجتماع مبغوضون من جماهير النصارى .

وقد ألف الكثير من الكتب فى فرنسا وغيرها فى التحريض عليهم ، وقد استأصلوا شأقتهم فى ألمانيا وكثير من البلاد المجاورة لها بعد الحرب العظمى وأصبح هذا الشعب عندهم من أقبح شعوب العالم ، وكذلك العداوة بين بعض النصارى وبعض لا تزال آثارها تظهر بين حين وآخر لدى الدول الكبرى القوية فهى دائما فى استعداد لحرب يسحق بها بعضهم بعضا والحرب القائمة الآن بين الدول المسيحية الكبرى أكبر برهان على صدق ذلك .

(كلما أوتدوا نارا للحرب أطفأها الله) أى كلما هموا بالكيد للرسول وللمؤمنين الصادقين خذلهم الله وهم إما أن يخيبوا فى سعيهم ولا يتم لهم ما أرادوا من الإغراء والتحريض ، وإما أن ينصر الله رسوله والمؤمنين .

والمعروف في كتب السيرة أن اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومنهم من سعى لتجريض الروم على غزوهم ، ومنهم من كان يؤوى أعداءهم ويساعدهم ككعب بن الأشرف ، وما سبب ذلك إلا الحسد والعصبية وخوف الأحرار والرهبان من إزالة الإسلام لامتيازاتهم العلية والدينية التي كانوا معروفين بها في بلاد الحجاز ، فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا روحه ، والدليل على ذلك أن اليهود كان لهم ضلع بعد ذلك مع المسلمين في الشام والأندلس لما رأوا من عدلهم وإزالة الجور والظلم الذي كان عليه الروم والقوط . وكذلك عداوة النصارى للمسلمين كانت سياسية وكانت على أشدها بينهم وبين الروم المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز كالشام ومصر ، وكان نصارى البلاد أقرب ميلا إلى المسلمين بعد أن وثقوا بعدلهم وزال عنهم ظلم الروم مع كونهم من أهل دينهم ، وقد جرت العادة أن الناس يتبعون في العداوة أو المودة ما تمليه عليهم منافعهم ومصالحهم .

(ويسعون في الأرض فسادا) أى إن ما يأتونه من عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإيقاد الفتن والحروب لم يكن بقصد الإصلاح للأخلاق وشئون العمران والاجتماع بل كانوا يقصدون السعى في الأرض للفساد ويحاولون السكيد للمؤمنين ومنع اجتماع كلمة العرب ويودون ألا يخرجوا من الأمية إلى العلم والعرفان ، ولا من الوثنية إلى التوحيد حسدا لهم وحبا في دوام امتيازهم عليهم .

(والله لا يحب المفسدين) في الأرض بل يبغضهم ، ومن ثم لا ينجح سعيهم ولا يصلح عملهم ، لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته تعالى في صلاح الناس وعمران البلاد .

ومن ثم أبطل سبحانه كل ما كاده أولئك القوم للنبي صلى الله عليه وسلم والعرب والإسلام ، وأصلح بالإسلام ما كانوا خربوه من البلاد ونصر المسلمين على كل

من ناوأهم ، وكذلك هم تركوا التوراة والإنجيل وهما قد أنزلا لهداية الناس إلى الصلاح والإصلاح فزال ملكهم وسلط الله عليهم غيرهم .

(ولو أنَّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم لكفرنا عنهم سيئاتهم التى اقترفوها ومحونا عنهم ذنوبهم ولم نقضهم بها ولأدخلناهم جنات ينعمون بها فى الآخرة .

وفى ذلك إعلام من الله بعظم معاصى اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله وفتحه باب التوبة لكل عاص وإن عظمت معاصيه وبنفت مبعغ سيئات اليهود والنصارى ، وإخبار بأن الإيمان لا ينجى إلا إذا شفع بالتقوى ، ومن ثم قال الحسن هذا العمود فأين الأطناب ؟ .

(ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى ولو أقاموا ما فى التوراة والإنجيل المنزلى بنور التوحيد المبشرين بالنبي الذى يأتى من أبناء إسماعيل والذى قال فيه عيسى عليه السلام :

إنه روح الحق الذى يعلمهم كل شىء ، وأقاموا ما أنزل إليهم من ربهم على هذا النبي الكريم الذى بشرت به كتبهم لوسع الله عليهم رزقهم ولأعطتهم السماء مطرها وبركتها والأرض نباتها وخيرها كما قال تعالى : « أَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بُرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

وفى هذا تنبيه إلى أن ما أصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جنائياتهم لا من قصور فى فيض الله وعظيم عطائه ، وإشارة إلى أنهم لو أقاموها ما عاندوا النبي ذلك العناد ، فالدين عندهم إنما كان أمانى يتمنونها وبدعا وتقاليد يتوارثونها ، فهم بين غلو وتقصير وإفراط وتفریط .

(منهم أمة مقتتة وكثير منهم ساء ما يعملون) أى منهم جماعة معتدلة فى أمر دينها لا تفرط ولا تهمل وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأضرابه من

اليهود ، والنجاشي وأصحابه من النصارى ، وكثير منهم أجلاف متعصبون ساء ما يعملون من كفرهم بالله واجتراح المعاصي ، ويزعم النصارى منهم أن المسيح ابن الله ويكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ويكذب اليهود بعيسى ومحمد صلى الله عليهما .

والمعتدلون لا تخلو منهم أمة لكنهم يكثرون في طور صلاح الأمة وارتقائها ، ويقولون في طور فسادها وانحلالها ولا تهلك الأمم إلا بكثرة من يعمل السوء من أشرارها ، وقلة من يعمل الصالحات من أخيارها ، وهؤلاء المعتدلون هم السباقون إلى كل صلاح وإصلاح يقوم به المجددون من الأنبياء في مختلف العصور ، ومن ثم قبل هذا الدين الجديد هؤلاء المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم فكانوا مع إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب ، والمحبين للعلوم والفنون.

روى ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يوشك أن يرفع العلم ، قلت : وكيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال : شككتك أمك يا ابن نفير ، إن كنت لأراك من أئمة أهل المدينة ، أوليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى ، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله ، ثم قرأ : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) الآية » .

وأخرج أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد قال : « ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فقال : وذلك عند ذهاب العلم ، قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : شككتك أمك يا ابن أم لبيد ، إن كنت لأراك من أئمة رجل بالمدينة ، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء » .

ومغزى هذا أن العبرة في الأديان هو العمل بها والاهتداء بهيئها ، وقد كان أهل الكتاب في ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له ، كما هو شأن المسلمين اليوم .

وهذه الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال لها نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى : « وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » وقوله « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِفَنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ » الآية .

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُتْقِمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) أى يا أيها الرسول بلغ إلى الخلق جميع ما أنزل إليك من ربك مالك أمرك ومبلغك إلى كمالك ، ولا تحش في ذلك أحدا ولا تخف أن ينالك من ذلك مكروه .

(وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ) أى وإن لم تفعل ما أمرت به من التبليغ لما أنزل إليك بأن كتمته ولو مؤقتا خوفا من الأذى بالقول أو بالفعل - فحسبك جرما أنك ما بلغت الرسالة ولا قت بما بعثت لأجله ، وهو تبليغ الناس ما أنزل إليهم من ربهم كما قال تعالى « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

والحكمة في التصريح بالأمر بالتبليغ وتأكيد به جعل كتمان بعضه ككتمان

كله ، مع السلم بأن الرسل صلوات الله عليهم معصومون من كتمان شيء مما أمرهم الله بتبليغه وإلا بطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ - الحكمة في ذلك بالنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إعلامه بأن التبليغ حتم لا يجوز كتمانه ولو إلى حين بتأخير شيء عن وقته على سبيل الاجتهاد ، ولولا هذا النص لكان للرسول أن يجتهد بتأخير بعض الوحي إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله ولا يحملهم سماعه على رده وإيذاء الرسول لأجله .

والحكمة بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها باختلاف الرأي والفهم ، ومن هذا تعلم أن ما نقل من الأقوال والآراء من جواز كتمان بعض الوحي غير القرآن عن كل الناس أو عن جمهورهم لا يتفق مع الدين في شيء ولا يعول على ما رووه من الأخبار الضعيفة والأحاديث الموضوعة في هذا الباب .

والحق الذي لا شبهة فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزل إليه من القرآن وبينه ولم يخص أحدا بشيء من علم الدين ، وأنه لا امتياز لأحد عن أحد في علم الدين إلا بفهم القرآن فهما يتوصل إليه بعلم السنة وآثار علماء الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار في الصدر الأول ، وبمعرفة مفردات اللغة العربية وأساليبها ، ومعرفة علوم الكون وشئون البشر وسنن الله في الخلق .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي آية من السماء أنزلت أشد عليك ؟ فقال : كمت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس في الموسم ، فنزل عليّ جبريل فقال : (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) الآية قال - فقامت عند العقبة فقلت : أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول إليكم ، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة - قال صلى الله عليه وسلم فما بقي رجل ولا أمة ولا صبي إلا يرمون عليّ بالتراب والحجارة

ويقولون : كذاب صابئ . فعرض على عارض فقال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك ، فجاء العباس عمه فأنتقذه منهم وطردهم عنه . »

(والله يعصمك من الناس) أى يمنعك من فتكهم مأخوذ من عصام القربة وهو ما توكأ به أى يربط به فيها من سير جلد أو خيط ، والناس هم الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم وفساد عقائدهم وأعمالهم والنعى عليهم وعلى سلفهم ، وكان ذلك يغيظهم ويحملهم على الإيذاء ، ومن ثم كان المشركون يتصدون لإيذائه صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل ، واثمروا به بعد موت أبى طالب وقرروا قتله فى دار الندوة ولكن الله تعالى عصمه منهم وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة .

روى الترمذى وأبو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عن بضعة رجال من الصحابة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرس فى مكة قبل نزول هذه الآية فقال : يا عم إن الله قد عصمنى لا حاجة لى إلى من تبعث » .

وقد وضعت هذه الآية وهى مكية فى سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدنى لتدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عرضة لإيذائهم أيضا وأن الله تعالى عصمه من كيدهم ولتذكر بما كان من إيذاء مشركى قومه من قبلهم .

(إن الله لا يهدي القوم الكافرين) أى إنه تعالى لا يهدى أولئك القوم الكافرين الذين هم بصدد إيذائك على التبليغ إلى ما يريدون بل يكونون خائبين وتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين .

(قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) أى قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى (لستم على شيء) يعتد به من أمر الدين ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبيين .

(حتى تقيموا التوراة والإنجيل) فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح وفيما بشر به من بعثة النبي الذي يحىء من ولد إسماعيل الذي سماه المسيح روح الحق والبارقليط .

(وما أنزل إليكم من ربكم) على لسان محمد وهو القرآن المجيد فهو الذي أكمل به دين الأنبياء والمرسلين على حسب سنن الله في الكون .

(وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أى وأقسم بأن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي أكمل الله به الدين المنزل على محمد خاتم النبيين إلا غلوا في تكذيبهم وكفرا على كفرهم ، لأنهم لم ينظروا فيه نظرة إنصاف ، بل نظروا إليه بعين العصبية والعدوان إذ كانوا على تقاليد وثنية وأعمال وعادات سخيفة ، فلم يكن لهم من الدين الذى يدينون به ما يقر بهم إلى فهم حقيقة الإسلام ليعلموا أن دين الله واحد وأن ما سبق بدء وهذا إتمام .

أما غير الكثير وهم الذين حافظوا على التوحيد ولم تحجبهم عن نور الحق شتى التقاليد فهم الذين ينظرون إلى القرآن بعين البصيرة فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأن من أنزل عليه هو النبي المبشر به فى كتبهم فيسارعون إلى الإيمان به على حسب حظهم من سلامة الوجدان واطمئنان النفس بما لديها من العلم والعرفان .

(فلا تأس على القوم الكافرين) قال الراغب : الأسى الحزن ، وأصله إتباع العائت بالغم ، أى فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين ، وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمنى قومك ومن مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم .

والعبرة للعسلم من هذه الآية أن يعلم أنه لا يكون على شىء يعتد به من أمر الدين حتى يقيم القرآن وما أنزل إليه من ربه فيه ويهتدى بهديه ، فحجة الله على عباده واحدة فإذا كان الله لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا ماورثوه من تلك التقاليد التى صلدتهم عما عندهم من وحى الله ، فإنه لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظنا لكتابنا

والناس عن مثل هذا غافلون و إلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون .

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله والذين دخلوا اليهودية والصابئين الذين يعبدون الملائكة ويصلون إلى غير القبلة والنصارى ، من أخلص منهم الإيمان بما ذكر دواما وثباتا كما فى المؤمنين المخلصين أو إيجادا وإنشاء كما هو حال المنافقين وغيرهم من الطوائف الأخرى ، فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من لذات الدنيا وعيشها بعد معايتهم ما أكرمهم الله به من جزييل ثوابه .

وفى الآية إيماء إلى أن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله لا الوسائل منه ولا المقاصد ، فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها ولا هم تركوا ما عندهم منها على ظواهرها ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الذى كان عليه سلفهم الصالح ولا هم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون ، إلا قليلا منهم عذبوا على توحيد الله ورموا بالزندقة لرفضهم تقاليد الكنائس والبدع التى شرعها الأحرار والرهبان ، كما أن فيها ترغيبا لمن عدا من ذكروا فى الإيمان والعمل الصالح ليكون لهم من الجزاء مثل ما لأولئك .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصَيْرِ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أخذ الميثاق على بنى إسرائيل وبعث فيهم النقباء أعاد التذكير به هنا مرة أخرى وبين عتوهم وشدة تمردهم وما كان من سوء معاملتهم لأنبيائهم .

الإيضاح

(لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) الميثاق هو العهد الموثق ، وقد أخذ الله عليهم العهد فى التوراة بتوحيده واتباع الأحكام التى شرعها لهدى خلقه وتحليلهم بحلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وقد نقضوا هذا الميثاق كما تقدم أول السورة وعاملوا الرسل تلك المعاملة - وهو أنه كلما جاءهم رسول بشيء لا تهواه أنفسهم عاملوه بأحد الأمرين إما التكذيب المستلزم للاعراض والعصيان وإما القتل وسفك الدماء .

وخلاصة ذلك - إنهم بلغوا من الفساد واتباع الأهواء أخشنها مركبا وأشدّها

عتوا وضللا حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل ولا هديهم بل صار ذلك مغريا لهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة البررة والسادة الأخيار .

(وحسبوا ألا تكون فتنة) الفتنة الاختبار بشدائد الأمور كتسلط الأمم القوية عليهم بالقتل والتخريب والاضطهاد أى وظنوا ظلنا قويا تمكن من نفوسهم أنه لا تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد لأنهم كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ويعتقدون أن نبوة أسلافهم وآبائهم تدفع عنهم العقاب الذى يستحقونه بسبب ذلك القتل والتكذيب .

(فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم) أى فعموا عن آيات الله التى أنزلها فى كتبه مرشدة إلى عقابه للأمة المفسدة الظالمة ، وعموا وضعه من السنن فى خلقه مصدقا لذلك ، وصموا عن سماع المواعظ التى جاءهم بها أولئك الرسل وأنذروهم بالعقاب إذا هم خالفوها ونقضوا الميثاق وخرجوا عن هدى الدين ، وظلموا أنفسهم واتبعوا أهواءهم وساروا فى غيهم ، وانهمكوا فى ضلالهم ، فسلط الله عليهم من سامهم الخسف وأوقع بهم البوار والدمار ، فجاس البابليون خلال ديارهم وأحرقوا المسجد الأقصى ونهبوا أموالهم وسبوا أولادهم ونساءهم وسلبوهم أموالهم وثلوا عروش ملكهم ، ثم رحيم الله وتاب عليهم حين أقلعوا عن الفساد وأعاد إليهم ملكهم وعزهم على يد ملك من ملوك الفرس إذ جاء إلى بيت المقدس وعمره ورد من بقى من بنى إسرائيل فى أسر يُخْتَصَر إلى وطنهم ورجع من تفرق منهم فى الأقطار فاستقروا وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا .

ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا إلى ظلمهم وفسادهم فى الأرض وقتلوا الأنبياء بغير حق فقتلوا زكريا وإشعيا وأرادوا قتل عيسى عليه السلام ، فسلط الله عليهم الفرس ثم الروم (الرومانيين) فازالوا ملكهم واستملاهم .

وفى قوله (كثير منهم) إشارة إلى أن عمى البصيرة والصمم عن المواعظ لم يكن

للجميع بل كان للكثير منهم ، والله تعالى يعاقب الأمم بذنوبها إذا كثرت وشاعت فيها إذ العبرة بالغالب لا بالأقل النادر الذي لا يؤثر في صلاح ولا فساد ومن ثم قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

(والله بصير بما يعملون) لنبيه وخاتم أنبيائه من الكيد والمكر وتدبير الإيقاع به وتأليب القبائل والشعوب المختلفة لتكون يدا واحدة للفتك به ، وما سبب ذلك إلا اتباعهم للهوى وأنهم عموا وصموا مرة أخرى فصاروا لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى ولا يسمعون ما يتلوه عليهم من الآيات وسيعاقبهم الله على ذلك بمثل ما عافهم به من قبل وينكل بهم أشد النكال ، ويذيقهم أنواع الوبال .
وبعد أن عدد قبائح اليهود ومخازيهم شرع يفصل قبائح النصارى ويبطل أقوالهم الفاسدة وآراءهم الزائفة ، فقال :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) أى أقسم إن هؤلاء الذين ادعوا أن الله هو المسيح بن مريم — قد كفروا وضلوا ضلالا بعيدا ، إذ هم فى إطاره ومدحه غلوا أشد من غلو اليهود فى الكفر به وتحقيره وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتاناً عظيماً ؛ وقد صارت هذه المقالة هى العقيدة الشائعة عندهم ، ومن عدل عنها عدّ مارقا من الدين فقالوا إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها (الآقانيم الثلاثة) وهى الآب والابن وروح القدس ، فالمسيح هو الابن والله هو الآب وقد حل الآب فى الابن واتحد به فكوّن روح القدس ، وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخرين .

وخلاصة ذلك — الله هو المسيح ، والمسيح هو الله كما يزعمون .

(وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) أى والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون : فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفا بأنه ربه وربهم ودعا بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده ، ولا يزال هذا الأمر محفوظا فى الأناجيل التى كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه ، فى الإنجيل يوحنا

(وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) فدين المسيح مبنى على التوحيد الحُض وهو دين الله الذى أرسل به جميع رسله .

وفى هذه المقالة تنبيه إلى ماهو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى لأنه عليه السلام لم يفرق بين نفسه وغيره فى أن دلائل الحدوث ظاهرة على الجميع .
و بعد أن أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص ، أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه ، فقال :

(إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)
أى إن كل من يشرك بالله شيئاً من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر أو نحو ذلك فيجعله ندّاً له أو متحداً به أو يدعوهُ لجلب نفع أو دفع ضرر أو يزعم أنه يقربه إليه زلفى فيتخذهُ شفيعاً ليؤثر فى إرادته تعالى وعلمه ، ويحمّله على شىء غير ما سبق به علمه وخصسته إرادته فى الأزل - من يفعل ذلك فإن الله قد حرم عليه الجنة فى سابق علمه ، وبمقتضى شرعه الذى أوحاه إلى جميع رسله ، فلا مأوى له إلا النار التى هى دار العذاب والذل والهوان - وما للظالمين لأنفسهم بشركهم بالله من نصير ينصرهم ولا شفيع ينقذهم مما يحل بهم « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » .

وفى هذا إيماء إلى أن النصارى كانوا يتكلمون على كثير من القديسين ، إذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فيهم وإن لم تكن من أصل دينهم .

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) أى لقد كفر الذين قالوا إن الله خالق السموات والأرض وما بينهما - ثالث أقانيم ثلاثة ، أب والد غير مولود وابن مولود غير والد ، وزوج متبعة بينهما .

والخلاصة — إن الفرق ثلاثة : (١) إن إلههم ثالث ثلاثة (٢) إن الله هو المسيح بن مريم (٣) إن المسيح هو ابن الله وليس هو الله .

والتأخرون من النصارى يقولون بالأقانيم الثلاثة وأن كل واحد منها عين الآخر فالآب عين الابن وعين روح القدس ، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الآب وروح القدس أيضا ، وقد ذكرنا فيما سلف أن النصارى أخذوا عقيدة التثليث من قدماء الوثنيين .

ثم رد الله عليهم ما قالوه بلا روية ولا بصيرة ، فقال :
(وما من إله إلا إله واحد) أى لا يوجد إله إلا من اتصف بالوحدانية وهو الإله الذى لا تركيب فى ذاته ولا فى صفاته ، فليس ثم تعدد ذوات وأعيان ولا تعدد أجناس وأنواع ولا تعدد جزئيات وأجزاء .

(وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى وإن لم ينتهوا عن قولهم بالتثليث ويتركوه ، ويعتصموا بعروة التوحيد ويعتقدوه ، فوالله ليصيبنهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم .

وفى الآية إيماء إلى أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب إلى الله تعالى ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها .

ثم تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البينات وقامت عليهم الحجج المبطللة له والنذر بالمذاب المرتب عليه ، فقال :

(أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ؟) أى أيسمعون ما ذكر من التنفيذ لآرائهم والوعيد عليها ، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد واستغفار الله عما فرط منهم ، والحال أن ربهم واسع الرحمة عظيم المغفرة يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم ما فرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات .

(ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) أى ليس المسيح إلا رسولا من الرسل الذين بعثهم الله لهداية عباده قد مضت من قبله رسل اختصهم الله مثله بالرسالة وأيدهم بالآيات ، وأمه صديقة

فلها في الفضل مرتبة تلي مرتبة الأنبياء والمرسلين ، ونحو الآية قوله : « وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا » .

أما حقيقة النوعية والجنسية فهي مساوية لحقيقة غيرها من أفراد نوعها وجنسها ، فهما كالان الطعام ليقما بنيتهما ويمدا حياتهما لثلاينحل بدنهما ويهلكا ، وكذلك يعرض لهما ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات فلا يمكن أن يكون كل منهما إلها خالقا ولا ربا معبودا ، ومن السفه أن يحتقر الإنسان نفسه ويحتقر جنسه ويرفع بعض المخلوقات المساوية له في الماهية والمشخصات والممتازة بميزات عرضية فيجعل نفسه عبدا لها ويسمها آلهة أو أربابا .

وبعد أن بين حالهما بيانا لا يحوم حوله شائبة من الريب ، تعجب من حال من يدعى لهما الربوبية ولا يرعوى عن غيه وضلاله ولا يتأمل فيما هو عليه من إفن الرأي والخطأ ، فقال :

(انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) الآيات هي الدلائل القاطعة ببطلان ما يدعون ، ويؤفكون أى يصرفون عن التأمل فيها لسوء استعدادهم وخبث نفوسهم .

أى انظر أيها السامع نظرة عقل وفكر ، كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين البالغة أقصى الغايات فى الوضوح على بطلان ما يدعون فى أمر المسيح ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ، وكيف لا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها ومن مبادئها إلى غاياتها فكانهم قد قلدوا عقولهم وصارت أفئدتهم هواء .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا

عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ
 دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا
 لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى
 كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ
 سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
 فَاسِقُونَ (٨١) .

شرح المفردات

الفلو : الإفراط وتجاوز الحد ، والأهواء : الآراء التى تدعو إليها الشهوة دون الحجة ،
 والاعمى : الحرمان من لطف الله وعنايته ، يتولون الذين كفروا أى يوالونهم ويزينون
 لهم أهواءهم .

الإيضاح

(قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؟) أى قل أيها الرسول
 لهؤلاء النصارى وأمثالهم ممن عبدوا غير الله - أتعبدون من دونه أى متجاوزين
 عبادته وحده - ما لا يملك لكم ضرا تخشونه أن يعاقبكم به إذا أنتم تركتم عبادته
 ولا يملك لكم نفعا ترجون أن يمجزيكم به إذا عبدتموه ؟ .

وفى هذا إيماء إلى دحض مقالاتهم بالحجة والدليل ، فإن اليهود وقد كانوا يعادون
 المسيح ويقصدونه بالسوء لم يقدر على الإضرار بهم ، وأنصاره وصحابته مع شديد
 محبتهم له لم يستطع إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم ، والعاجز عن الضر والنفع
 كيف يعقل أن يكون إلها ؟

وإذ كان قول النصارى فى المسيح من أشد أنواع الغلو فى الدين بتعظيم الأنبياء فوق ما يجب أن يكون لهم من التعظيم وكان إيذاء اليهود له وسعيهم فى قتله من الغلو فى الجلود على تقاليد الدين التى ابتدعوها واتباع أهوائهم بلا علم ، وكان هذا الغلو هو الذى دعاهم إلى قتل زكريا وإشعيا قال تعالى :

(يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) سواء السبيل وسطه الذى لا غلو فيه ولا تقريط وهو الإسلام ، وضللهم ترك شريعتهم واتباعهم الأهواء الفاسدة الموافقة لشهوات النفوس الجامحة بها إلى الحصول على اللذات والإعراض عن الدين جانبا وضللهم عنه هو إعراضهم عن اتباعه .

نهى الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا فى عصر التنزيل عن الغلو الذى كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم ، وعن التقليد الذى كان سبب ضللهم ، إذ هم قد اتبعوا أهواءهم وتركوا سنن الرسل والأنبياء والصالحين من قبلهم ، لأن كل أولئك كانوا موحدين وكانوا ينكرون الشرك والغلو فى الدين ، ففقيدة التثليث وتلك الشعائر الكنسية المستحدثة من بعدهم كشرع عبادات لم يأذن بها الله ، وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات بل حرمها القسيسون والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم مبالغة فى التنسك والزهد أورياء وسمعة ، وجعل الأنبياء والصالحين أربابا ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله فى الأسباب والمسببات الكسبية ، ولذا جعلوهم آلهة يعبدون من دون الله أو مع الله .

كل أولئك قد ضلوا به وأضلوا كثيرا ممن اتبعهم فيه وسيكون سبب شقايتهم وعذابهم فى الآخرة إن لم يرجعوا عنه وينيبوا إلى الله منه .

وبعد أن بين الله ضلالهم وإضلالهم ذكر أسباب ذلك وأرشد إلى ما أخذهم به ، فقال :

(لمن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك

بما عصوا وكانوا يعتدون) أى لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل فى الزبور والإنجيل على لسان هذين النبيين فقد لعن داود عليه السلام من اعتدى منهم فى السبت أو لعن العاصين المعتدين عامة ، وكذلك لعنهم عيسى عليه السلام وهو آخر أنبيائهم ، وما سبب ذلك اللعن الذى امتد واستمر إلتاماديهم فى العصيان وتمردهم على الأديان كما يدل عليه قوله : وكانوا يعتدون .

ثم بين الله سبحانه وتعالى أسباب استمرارهم على العصيان وتعدى الحدود فقال : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) أى كان من دأبهم ألا ينهى أحد منهم أحدا عن منكر يقتضيه مهما قبح وعظم ضرره ، والنهى عن المنكر هو حفاظ الدين وسياج الفضائل والآداب ، فإذا تجرأ المستهترون على إظهار فسقهم وجفورهم ورآهم الغوغاء من الناس قلدهم فيه وزال قبحه من نفوسهم وصار عادة لهم وزال سلطان الدين من قلوبهم وتركوا أحكامه ورأهم ظهريا .

وفى الآية إيحاء إلى فشو المنكرات فيهم ، وانتشار مفسادها بينهم ، إذ لولا ذلك ما كان ترك التناهى شأنا من شئونهم وعادة من عاداتهم .

(لبئس ما كانوا يفعلون) هذا تقبيح لسوء فعلهم وتعجب منه وذم لهم على اقتراف بعضهم للمنكرات وإصرارهم عليها وسكوت آخرين ورضاهم بها ، وفى سوق الآية إرشاد للمؤمنين وعبرة لهم حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم ويحل بهم من غضب الله ولعنه مثل ما حل بينى إسرائيل .

روى أبو داود والترمذى عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمتنع ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال : (لعن الذين كفروا - إلى قوله فاسقون) ثم قال صلى الله عليه وسلم : كلا ، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم

ولتأطرنه (تعطفنه) على الحق أطرا ولتقسنه على الحق قسرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم .

وأخرج الخطيب من طريق أبي سلمة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفس محمد بيده ليخرجن من أمتي ناس من قبورهم في صورة القردة والحذير بما داهنوا أهل المعاصي وكفوا عن نهيهم وهم يستطيعون » .

والآثار في هذا الباب كثيرة وفيها وعيد عظيم على ترك التناهي ، فهل من مدكر وإلى متى نعرض عن أوامر ديننا ولا نرعوى عن غينا ولا نتبع أوامر شرعنا ؟ .

وبعد أن ذكر الله لنبيه أحوال أسلافهم ذكر له أحوال حاضريهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم ، فقال :

(ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا) أى ترى أيها الرسول الكريم كثير من بنى إسرائيل يتولون الذين كفروا من مشركى قومك ويحالفونهم عليك ويحرضونهم على قتالك ، وأنت تؤمن بالله وبما أنزله على رسله وأنبيائه وتشهد لهم بصدق الرسالة ، وأولئك المشركون لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا يعبدون إلها واحدا ، ولولا اتباع الهوى وتزيين الشيطان لهم أعمالهم ما فعلوا ذلك ولا دار هذا بخاطرهم وما استجبوا العمى على الهدى ، ومن يضل الله فما له من هاد .

وقد روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه ذهبوا إلى مكة واستجاشوا المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لم يتم لهم ما أرادوا إذ لم يلبوا لهم دعوة ولا استجابوا لهم كلمة .

(لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) أى بئس شيئا قدموه لأنفسهم فى آخرتهم - الأعمال التى أوجبت سخط الله وعظيم غضبه ، وسيجزون بها شر الجزاء إذ سيحيط بهم العذاب ولا يجدون عنه مصرفا ويخلدون فى النار أبدا ، فالنجاة منه إنما تكون برضا الله عن عبده ، وهم لم يفعلوا إلا ما يوجب سخطه وشديد غضبه .

(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) أى ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركى العرب - يؤمنون بالنبي الذى يدعون اتباعه وهو موسى عليه السلام وما أنزل إليه من الهدى والبينات ، لما اتخذوا أولئك الكافرين ممن يعبدون الأوثان والأصنام أولياء وأنصارا إذ كانت العقيدة الدينية تصدمهم عن ذلك وتدفع عنهم هذه الآصار والآثام التى يقترفونها .
والخلاصة - إن هذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها من سبب إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله والتعاون على حربته وإبطال دعوته والتكليل بمن آمن به .

ويرى مجاهد أن المراد بالذين كفروا المنافقون أى إن أولئك المنافقين كفار ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه كما يدعون ما اتخذهم اليهود أولياء لهم ، فتوليهم إياهم من أعظم الأدلة على أنهم يسترون الكفر ويظهرون الإيمان نفاقا ، وكان اليهود يتولون المشركين والمنافقين جميعا لاشتراكهم فى عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وقد بين الله أسباب هذه الألفة والعلة الجامعة بينهم فقال :
(ولكن كثيرا منهم فاسقون) أى ولكن كثيرا منهم متعمدون فى النفاق خارجون عن حظيرة الدين لا يريدون إلا الرياسة والجاه ويسعون إلى تحصيلهما من أى طريق قدروا عليه ، ومتى سار الكثير من الأمة على طريق تبعه الباقون إذ لا عبرة بالقليل فى سيرة الأمة وأعمالها .

وكان الفراغ من مسودة تفسير هذا الجزء فى الليلة الثالثة من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية بحلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، والله الحمد أولا وآخرا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فِيهِ

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

المبحث	الصفحة
مفسد الجهر بالسوء من القول .	٤
سؤال أهل الكتاب للرسول أن ينزل عليهم كتابا من السماء .	٩
حدوث الاشتباه في الأشخاص لتقارب الشبه جد التقارب .	١٣
المراد من التوفى والرفع في قوله تعالى : إني متوفيك ورافعك إلیّ .	١٤
في التوراة التي بين أيديهم جواز أخذ الربا من غير اليهود .	١٨
حكمة إرسال الرسل .	٢٣
آية الله في خلق عيسى كآيته في خلق آدم .	٢٩
عقيدة التثليث عقيدة وثنية .	٣٢
الديانة النصرانية أساسها التوحيد الخالص وحوّلها الكهنة إلى الوثنية .	٣٦
العقود ثلاثة أضرب .	٤٣
الأمر بالتعاون على البر والتقوى .	٤٥
الحكمة في تحريم أكل الميتة والدم .	٤٧
الوقد تعذيب للحيوان .	٤٩
الاستقسام بالسيح والقرآن .	٥٢
الاستخارة التي ورد النص عليها .	٥٣

الصفحة	المبحث
٥٨	حكم مؤاكلة أهل الكتاب ومناحتهم .
٦٥	الحكمة فى شرع الوضوء والغسل .
٦٩	آيات الله قسمان .
٧٣	نقباء بنى إسرائيل .
٧٥	تحريف الكلم وأنواعه .
٧٩	القرآن يبين كثيرا مما كان يخفيه أهل الكتاب .
٨٥	اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار من سائر البشر .
٩٣	عقاب بنى إسرائيل بالتيه أربعين سنة .
٩٨	القرايين لدى اليهود والنصارى والمسلمين .
١٠١	متى يكون الندم توبة ؟ .
١٠٣	العبرة من قصص ابنى آدم .
١٠٥	جزاء قطاع الطرق .
١٠٩	معنى الوسيلة والتوسل .
١١٤	المقدار الذى يوجب قطع اليد عند السرقة .
١١٦	إنكار اليهود لحكم الزانى فى التوراة حتى أطلعهم النبى صلى الله عليه وسلم
١١٨	كان من وظيفة اليهود التجسس للمشركين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
١٢٠	اليهودى سماع للكذب على الرسول أكال للسحت .
١٢١	اليهود تركوا التوراة وتحاكموا إلى الرسول ليحكم على حسب أهوائهم .
١٢٤	كتان اليهود لوصف النبى صلى الله عليه وسلم والبشارة به .
١٢٨	الإنجيل لا يحتضن أحكاما .

الصفحة	المبحث
١٣٠	الشريعة اسم للأحكام العملية ، والدين أعم من ذلك .
١٣٠	الشرائع تختلف باختلاف الزمان والمكان .
١٣٣	توبيخ اليهود على طلب حكم الجاهلية وهم أهل كتاب .
١٣٥	عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة انقسم الكافرون أقساماً ثلاثة .
١٣٦	الموالاتة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيوية ليس بالمنهى عنها .
١٣٩	ارتد كثير من القبائل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده .
١٤٢	صفة المؤمن حقاً .
١٤٣	الله ورسوله وليّ المؤمنين .
١٤٥	النهى عن موالاتة أهل الكتاب والمشركين .
١٤٦	الإسلام نهج مع أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركي العرب .
١٥٠	النهى على اليهود لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
١٥٧	المقصد من الأديان العمل بها .
١٦٠	كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزل (والله يعصمك من الناس) فترك ذلك .
١٦١	المسلم ليس على شيء يعتد به من الدين حتى يقيم القرآن ويهتدى بهديه .
١٦٥	النصارى يقولون : الله هو المسيح والمسيح هو الله .
١٦٦	النصارى فرق ثلاث .
١٧٠	نهى الله أهل الكتاب عن الغلو في دينهم .
١٧٢	كان كثير من أهل الكتاب يوالون المشركين .